روايات احلام

موجُ السّجين

www.elromancia.com

مرمورية

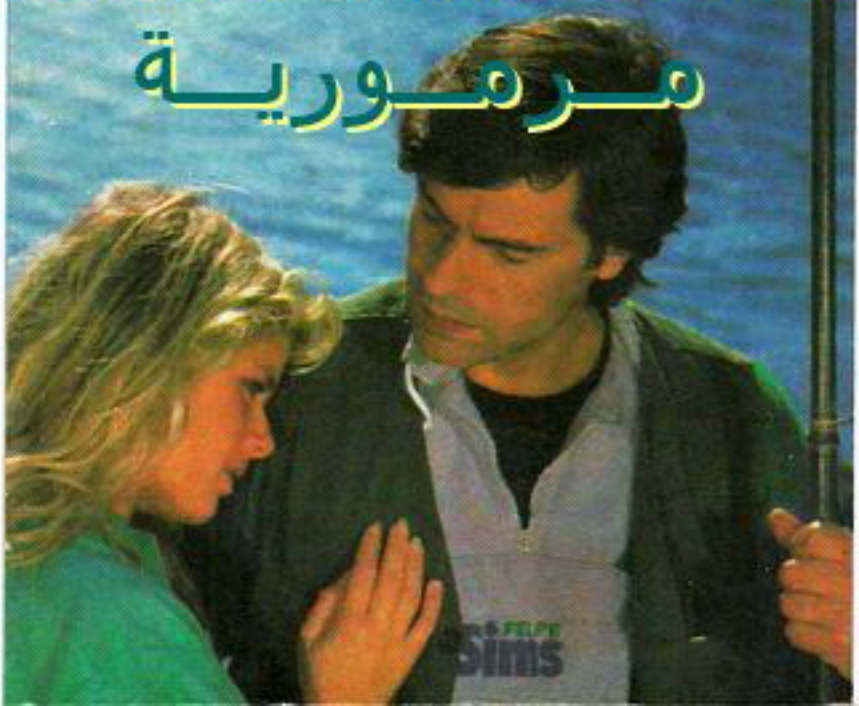

روايات احلام

الموج السجين

عندما تصبح العواطف صفقة، والقلب ملعباً للمصالح... فماذا يحدث للحب؟ وهل يتحول إلى سلعة للبيع؟

ظنت ميرا أنها وجدت حلاً لمشاكلها المادية عن طريق إيقاع ثورن سواذلنغ في هواها، ولم تعرف عارضة الأزياء الفاتنة أنها تلعب بالنار إلا بعدما أحرق الندم عينيها الجميلتين، فمن سيصدق الآن أن ميرا الدمية المدللة قد وقعت في الحب: قلبها المدفون عمراً في ثلوج الإهمال، أم ثورن المخدوع المتعطش إلى الانتقام؟

www.elromancia.com

١ ـ صفقة حب

لم تكن ميرا تصدق ما جرى لحياتها . . ففي مدة قصيرة تغيرت حياتها كلياً . . قبل أسبوع كان عندها أبوان محبّان يتوقان إلى تحقيق جميع أمنياتها وخطيب لا ينقطع عن التغني بحبه لها . ثم قتل والداها بحادث سيارة وبعدها رحل الخطيب الذي كان يدّعي الإخلاص والحب بسرعة الصاروخ وذلك ما إن ظهرت أعمال أبيها المشبوهة إلى العلن .

من فتاة وحيدة مدللة إلى فتاة وحيدة مفلسة ، لا تملك بنساً واحداً . . سمعت أحد الأشخاص من المشفقين يقول إنها باتت بمفردها تواجه عالماً لا رحمة فيه ولا وقت لها ، والغريب أن الأشخاص الذين كانوا يفرطون بالاهتمام أخذوا الآن يزدرونها هذا إذا أزعجوا أنفسهم بملاحظة وجودها . توقفت الدعوات كأنما بفعل مقصلة . . خاصة حين أصبح من المعروف أن ابن اللورد غريتركس ووريثه الوحيد ، قد نبذها .

ولكن لم يؤثر إفلاسها أو الخطوبة المفسوخة في جمالها الرائع ، فقد ظلّ الرجال يلاحقونها ولكن بدل أن يعاملوها باحترام كما كانوا يفعلون سابقاً ، كانوا يتوقعون منها أن تقفز إلى أحضانهم بإشارة من أصابعهم . . في الأمسية السابقة وفي حفلة من الدرجة الثانية أخذ أحد الرجال بمداعبتها بشكل حميم واضطرت إلى صفعه .

صاحت به : «كلكم سواء» .

وقفلت راجعة إلى منزلها في سيارة أجرة لم تكن قادرة على دفع

أجرتها . . دخلت إلى شقتها باكية بكاء الغضب والشفقة على الذات . . وهناك أقسمت أن تنتقم فسيأتي يوم تجعل فيه رجل ما يدفع ثمن ما فعله بها پيري غريتركس . .

سنحت لها الفرصة في وقت قريب . . ومن مصدر غير متوقع . . وصلها على شكل رسالة من شركة أملاك اشترت منها شقتها بالتقسيط، وكانوا قد راسلوها ثلاث مرات وفي كل مرة طلبوا منها الاتصال بهم بخصوص قسط لم تسدده . . اتصلت على مضض فحدّدوا لها موعداً مع المسؤول في صباح اليوم التالي .

اللعنة! صفقت السماعة على أمل أن تصيب أذني أحد بأذى . . إنها تكره النهوض باكراً خاصة عندما لا يكون لديها عرض للأزياء . . وضعت الكتاب الذي كانت تقرأه جانباً . . إنها تكره أيضاً عرض الأزياء الذي كانت تعتبره فرصة لتمضية الوقت ولكن ما إن اضطرت إلى القيام به لتكسب قوتها حتى باتت تمقته، مع أنها لم تكن تعمل أكثر مما هو لازم . . مؤخراً، رفضت عروضاً كثيراً رغم ضيق حالها . . وبعد اتصال بوكيل أعمالها الذي عانى منها طويلاً قبلت عرضاً للأزياء سيقام في الكاريبي . .

في الصباح التالي نهضت ميرا من السرير متثائبة وتوجهت إلى الحمام فملأت حوضه الوردي اللون بالماء الساخن، وأفرغت فيه نصف أنبوب من صابون الحمام بدون أن تفكر من أين سيأتي الأنبوب التالي ثم تركت غلالة نوم من الساتان الرقيق يزيد ثمنها عن مئة جنيه تسقط على الأرض بغير اهتمام . . ثم استرخت في الحوض المعطر، رافضة التصديق أن مثل هذا الترف الذي عرفته لن يدوم لها .

فيما بعد ارتدت ملابسها بعناية . . . اختارت ثوباً من قطعتين أنيقتين ناعمتين فهي بحاجة إلى سحرها وتريد أن تحل هذه الأزمة الطارئة بدون أن تفقد شقتها . حين انتهت نظرت إلى نفسها لتتأكد من حسن مظهرها . . . كانت خصلات شعرها الذهبي الأحمر تلمع بشكل مميز . . بشرتها نقية لا

شائبة فيها وثغرها مكتنز وكأنه بتلات وردة وردية مخملية . أما أنفها فمستدق قليلاً وأما أهدابها فذهبية ولكنها قاتمة أكثر من حاجبيها .

إنها في الثانية والعشرين من عمرها . . . قدّها الرشيق من النوع الذي يجلب صفير الذئاب في الشارع . . لكن هذا لم يكن يثير اهتمامها كثيراً . . طالما قال لها پيري إن جسدها من أكثر الأجساد إثارة ولكنه في الوقت ذاته مما يبعث الإحباط بسبب عدم سماحها له بالتقرب منها قبل الزواج . . لم تقل له إنها لم تسمح له بتخطي الحدود لأنها لم ترغب في علاقة معه أو لأنها لم ترغب قط في أي رجل . . ورغم إخفائها عنه واقع أنها باردة عاطفياً، فقد أرادت أن تكون له زوجة صالحة . . ولكنه هو في النهاية من خذلها لا العكس . لقد بنت الآمال على أن تصبح اللايدي غريتركس، ولن تسامحه أبداً على حرمانها من تحقيق هذا الأمل .

عندما ذكرتها دقة الساعة بأن عليها الإسراع لئلا تتأخر عن موعدها، ابتعدت عن المرآة وبدأت المسير في شوارع لندن . . بعد مئة يارد من السير على القدمين، أشارت إلى سيارة تاكسي وقالت بينها وبين نفسها إنها ستبدأ بالادّخار بعد هذه المرة . فكرت حزينة في الليموزين الفاخرة التي كانت لوالدها والتي بيعت مع كل شيء بعد الحادثة ولم يبق لها غير الشقة المرهونة التي لا تريد أن تفقدها .

وصلت إلى المكان المنشود وهناك أدخلت إلى مكتب كبير، وجدت فيه بانتظارها رجلين متوسطي العمر . نظرت إليهما بدهشة فتذكرت آخر مرة كانت فيها هنا لترتيب نقل الرهن من اسم والدها إلى اسمها . يومذاك لم تر غير موظف واحد . . ولكن هذين الرجلين أهم من مجرد موظفين . . مع ذلك دهشت عندما عرّفا عن نفسيهما على أنهما برايس وتالبوت سمولود الأخوان اللذان يملكان المؤسسة .

قالت بصوت قلق : أنا أفهم أنني تأخرت بضع أسابيع . .

عندما جلس الأخوان، تنحنح تالبوت :

ـ ليست مسألة الرهن السبب الوحيد الذي دفعنا إلى استدعائك هذا الصباح.. آنسة لاوتون.. إن للموضوع الذي سنتطرق إليه صلة بالرهن.. في الحقيقة لدينا أنا وأخي اقتراح نود طرحه.

حدقت ميرا إلى الرجلين بريبة، ووقفت: اقتراح؟

ـ إنه اقتراح عمل آنسة لاوتون.. أرجوك.. لا ترتاعي.

استرخت ميرا من جديد في مقعدها، وتذكرت أنها في موقف لا يسمح لها بالخروج من هنا بتشامخ، كما أنها تشعر بالفضول فهي تراهن أن هذين الشخصين رجلا أعمال قديرين وقد تستفيد لو أصغت إليهما.

نظر برايس إلى شقيقه ثم قال:

ـ نعرف والدك آنسة لاوتون، ونفهم الظروف الصعبة التي تمرين بها.. وبناء على ذلك تساءلنا ما إذا كنت مهتمة بالعمل عندنا.

لم تجد ميرا غرابة في أن يعرفا والدها.. وغضت النظر عن ملاحظته المتعلقة بظروفها الراهنة.. لكنها لا تفهم كيف تكون مفيدة لهما. ولئلا تضيع وقتها ووقتهما، قالت بسرعة:

ـ في الحقيقة لا أعرف شيئاً عن طبيعة أعمالكما سيد سمولود.. كل ما أجيده من عمل هو عرض الأزياء وهو عمل غير مولعة به أيضاً.. لكنني أتلقى عروض عمل كثيرة ولدي عرض في الأسبوع القادم في «باربادوس».

ـ باربادوس..! أمر مذهل.

رمى تالبوت رأسه إلى الوراء ضاحكاً.

بدأ ذكائها الفطري بالتحرك مجدداً: هل تفكران في إعلان ما؟

قال برايس:

ـ ليس بالضبط.. بل ما نفكر فيه مختلف كل الاختلاف عن عملك، آنسة لاوتون.. لكنه في مجال قدراتك.. لدينا مشكلة لم نتمكن من حلها ونعتقد أنك قادرة على مساعدتنا فيها.

ـ إذن قل لي ما هي؟

نظر تالبوت إلى وجهها وهو يُشبع فضولها ببطء:

ـ إذا وافقت على مساعدتنا، نلت منا مكافأة جيدة.. الأمر عائد إليك. نحن مستعدان لإلغاء الدين المستوجب عليك إضافة إلى مبلغ نقدي محترم.

ذكر مبلغاً رفرفت له عيناها.

أضاف: سيكون لك هذا كله إذا وافقت على القيام بما نطلبه منك بنجاح.

حاولت ميرا أن تبدو غير مهتمة وهي تسأل: وإن لم أنجح؟

ابتسم تالبوت بلطف:

ـ إن لم تنجحي ـ بشرط أن نقتنع أنك بذلت جهدك ـ أصبحت الشقة ملكك، فسنعطيك الأقساط وسندفع نفقات عودتك إلى الوطن.

سحبت ميرا نفساً حاداً، فهي ليست غبية لتتصور أن مثل هذا السخاء معروض عليها مقابل لا شيء.. ولا شك أن مكافأة كهذه لن تكون إلا مقابل عمل كبير جداً!

ـ إلى الوطن، من أين؟

ـ من باربادوس. ولهذا سررنا عندما ذكرت أمر سفرك إلى هناك.. فستكون نعم الصدفة.. بعد الانتهاء من عرض الأزياء ستعملين على تنفيذ العمل الذي نريد منك القيام به.

نظر بثبات إلى عينيها الدهشتين.. بعد صمت قصير سألها بلطف:

ـ حسناً.. هل ترغبين في سماع المزيد؟ أم تراك غيرت رأيك؟

ولأنها وجدت صعوبة في اتخاذ قرار، مرت لحظات قبل أن تقول ببطء:

ـ أغراني كلامك.

ابتسم: هذا ما كنت أهدف إليه.. لكن كما سبق أن قلت الأمر كله عائد إليك.

عندما لم يضغط عليها بأية طريقة هزت رأسها بالموافقة ولم ترَ أن هناك ضرراً مما سيقولانه . . فهي لم تلزم نفسها تجاههما .

في الوقت الذي توجه فيه برايس سمولود لإحضار القهوة من الغلاية الكهربائية بدأ تالبوت الكلام بحدة . . وما هي إلا ثوان حتى تبين لها مدى صلابته كرجل أعمال .

ـ منذ ثلاث سنوات حاولت أنا وأخي شراء جزيرة معينة في الكاريبي لأن لدينا مؤسسة عالمية، ونرغب في تطوير هذه الجزيرة لأغراض تجارية . . لكن مالكها يرفض البيع . ثم وافق في السنة المنصرمة ولكنه عاد فتراجع في آخر لحظة . . لقد حاولنا بكافة الطرق إقناعه إلا طريقة استخدام امرأة جميلة .

لقد توقعت سماع أي شيء إلا هذا . . قاطعته بدهشة :

ـ لا يمكن أن تكون جاداً في اقتراحك! كيف لي أن أقنع ذلك الرجل بأن يبيعك جزيرته؟ ليس لدي فكرة عمّن هو . .

ارتشف تالبوت قهوته . . وانتظر حتى هدأت . . ثم قال بجفاء :

ـ هلاّ تركتني أتمّ كلامي . . ربما فهمت الفكرة العامة . . ولكنك مخطئة إن كنت تظنين أننا نريد إرسالك إلى هناك كنوع من البائعات المبجلات . عليك أن تثقي أننا أشدّ مكراً من هذا . . لن نناقش معك أية خطط . . وسنترك الأمر لك، لكن لدينا خطة عامة نريد منك العمل عليها . في البدء ستذهبين إلى باربادوس كسائحة، وعندئذ ستتعرفين إلى السيد سواذلنغ الذي قد يدعوك إلى جزيرته . . يتطفل الكثير من الناس على مثل هذه الجزيرة الخاصة، صدفة أم تخطيطاً . . وقد يُبعدون عنها ولكن نادراً ما يعتبر هذا جريمة . . ولن يكون من الصعب على فتاة مثلك مقابلة السيد سواذلنغ والحصول على دعوة منه للبقاء . . وما إن تصبحي هناك حتى تجدي أن المسألة سهلة .

أحست ميرا بالصدمة والغضب، أيظنان أنها مجنونة؟ لم تسمع قطّ

باقتراح مناف للعقل كهذا في حياتها! ردّت خصلات شعرها الذهبي الأحمر إلى الوراء بغضب وصاحت بسخط :

ـ ماذا تحسبانني؟ فتاة لعوب؟

هز الأخوان أكتافهما ولم يحاول تالبوت إخفاء واقع أنه راجع أمثولته جيداً :

ـ كنت مخطوبة، وسبق أن عرفت عدداً من الرجال . . أنت فتاة ذات خبرة وافية . . فهل تظنين أننا نوظف فتاة صغيرة لمثل هذا العمل؟

حاولت كبت غضبها فسحبت نفساً عميقاً . . إنهما لا يأبهان أبداً بمشاعرها ولا شك أنهما أجريا تحقيقاً شاملاً عنها، غير أنهما ابتعدا قليلاً عن الواقع . يمكنها الاعتراف بذكائهما الإبداعي . . ولكن ألم يفرطا في التفاؤل؟

قالت ببرود :

ـ ربما تصرفت على حريتي هنا وهناك . . ولكنني لا أؤمن بالحب . . فإذا كان السيد سواذلنغ يفتقر إلى المشاعر فأخبركما بأن خطتكما الرائعة لن تثمر أبداً .

رد تالبوت بثقة :

ـ إنها مغامرة مستعدون لها . . وفي هذه المرة لا نظن أننا سنفشل .

ـ حسناً . . فلنفترض أن هذا الرجل وقع في غرامي . . فهل يا ترى سيتخلى عن الجزيرة أم سيتمسك بها أكثر ويصمّم على البقاء؟

قال تالبوت بلهجة ذات مغزى :

ـ لن يحدث هذا إذا استغليت عقلك وجمالك . . ثورن سواذلنغ في الثلاثين من عمره، والمعلومات التي أخذناها عنه تؤكد أن لديه حصة من الرغبة بالنساء . . إن تعاملت معه كما يجب فلن تواجهي المتاعب .

كانت ميرا أذكى من أن تعتبر كلامه مديحاً . برقت عيناها الخضراوان غضباً وقالت ساخرة :

ـ قد أتمكن من إقناعه أن جزيرة في الكاريبي مكان غير مناسب لي ولكنني لا أظنه ينتقل إلى مكان آخر إلا إذا وعدته بإقامة علاقة معه، ولا أظنكما تتوقعان مني الوصول إلى هذا الحد؟

الواضح أنهما يتوقعان هذا. . هز تالبوت كتفيه وقال:

ـ علاقة قد تنتهي بعد أسبوع. . وفي هذه الأيام حتى الزواج لا يدوم. . نحن نعرض عليك مبلغاً كبيراً من المال آنسة لاوتون.

شعرت أن عليها أن تكتسب هذا المبلغ بجهدها، وأكدت لنفسها أنها لا تنوي أبداً القيام بما يطلبان.

سمعت تالبوت يضيف برقّة:

ـ نحن شركة أملاك، آنسة لاوتون. . ونسعى لامتلاك الأراضي في كل أنحاء العالم. . جزيرة كالتي نتكلم عنها تساوي ثروة إذا طورت بشكل ملائم. نحن لا نقاضي الناس كي ننجح آنسة لاوتون ولسنا ممن يستنزف الناس. . ولكننا مقتنعون ان ثورن سواذلنغ سيبيعنا جزيرته إن وجد دافعاً يحدوه إلى ذلك. . إنه لا يعتمد على الجزيرة كمصدر رزق. . فمصدر ماله ليس الجزيرة أبداً.

فجأة ثابت إلى رشدها فهبت من مكانها وحاولت إخفاء اشمئزازها:

ـ آسفة! حقاً. . لا أستطيع القيام بما تطلبان. عليكما إيجاد شخص آخر.

لم تظهر عليهما الدهشة أو خيبة الأمل بسبب ردة فعلها. . بل اقترح تالبوت برقة:

ـ لماذا لا تفكرين ملياً في الأمر، وبعد ذلك تردين علينا؟ فقد تجدين العرض جيداً وقد ذكرت لك الشروط عند الفشل.

كررت بثبات:

ـ آسفة! ماذا عن المال الذي أدين به إن امتنعت عن الموافقة؟

توجهت إلى الباب. . فلوّح تالبوت يده بعدم اهتمام وقال مبتسماً:

ـ أوه. . واثق أننا سنتدبر أمراً. . لكن هل فكرت أن قبولك بعرضنا يعني عدم انشغال بالك في الرهن؟

أطل الأسبوع التالي على ميرا وهي مسترخية على مقدمة قمرة في مركب يمخر في عباب الكاريبي بحثاً عن جزيرة مهجورة. . جاءت ميرا إلى باربادوسا مع عارضتين أزياء من دار أزياء شهيرة. وحتى الآن عملن في الجزيرة الرئيسية. . لكن المصور دون دورسيت، يبحث الآن عن مكان آخر للصور.

ولأنه لم يجد مكاناً مناسباً بالأمس كان مزاجه سيئاً وهو أمر غير مقبول منه. على أي حال. . تكره ميرا العمل معه.

كانت الفتاتان الأخريتان ممددتين على السطح، لتأخذا قسطاً من النوم الذي حرمهما منه الاستيقاظ باكراً هذا الصباح. . أما دون دورسيت فكان مستلقياً على سطح المركب في المؤخرة يتأمل المساحات الفارغة بوجه كئيب. . كانت ميرا تفكر في أحداث الأمس الغريب. . لقد نبذها بيري غريتركس ولكنها بدأت تتساءل عما إذا كان من الحكمة أن تسمح لهذا الأمر التافه بالتأثير فيها تأثيراً يجعلها لا تهتم بما تفعل. . وبعد لقائها بالأخوين سمولود في الأسبوع الماضي قررت عدم القبول بالعمل لهما ولكنها عادت فغيرت رأيها وما زالت حتى الآن مذهولة لأنها وقعت العقد معهما مع أن سبب توقيعها مثل هذا العقد واضح كل الوضوح. . فبعد ليلة من القلق شعرت بأن فكرة التحرر من الدين أمر لا يقاوم. . هذا عدا المال الذي ستجنيه لقاء ذلك وهو مبلغ سيؤمن لها العيش الكريم والرفاهية مدة سنة.

بعد التفكير ملياً في الموضوع وجدت أنها ستكون مجنونة إن رفضت هذا العرض. . لماذا تسمح لشخص مثل ثورن سواذلنغ بالوقوف في طريقها؟ تعرف بناء على الملف الذي يتعلق به أنه رجل يستطيع الاعتناء بنفسه، ولكن لو حافظت على شجاعتها لتمكنت بسهولة من الهروب قبل

أن تصل الأمور إلى ما لا تحمد عقباه.. إمكانية وقوع ثورن سواذلنغ أمر بعيد المنال.. لكن إن حدث ووقع في شباك حبها، فستحمد ربها لأنها وجدت الفرصة التي ستخوّلها الانتقام. وسيكون هذا انتقاماً مما فعله بها پيري وسيشعرها الانتقام بالرضى الكامل.

في البدء كانت تشعر بغرابة هذا الموضوع كله، ولكنها بدأت تعتاد على الفكرة ولأنها لم تفعل شيئاً حتى الآن لم يبدُ مهماً لها.. لقد اعتنى الأخوان سمولود بكافة التفاصيل الرئيسية لذا لا حاجة بها إلى القلق. ما عليها سوى إيجاد ثورن سواذلنغ وجزيرته، وترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي.. وكم أملت أن يعثر دون دورسيت على الجزيرة صدفة.. لتتمكن من وزن ثورن سواذلنغ قبل عودة الجميع إلى لندن. تمددت ميرا بكسل وأدارت وجهها إلى الشمس.. نادراً ما تحل المشاكل بطرق سهلة.

لم تكن منتبهة لما يفعله دون.. لكنه حين صاح: اليابسة أمامنا! نظرت إلى ما حولها وهبت على قدميها.

أشار بيده:

ـ هاكم هي! لعلها المكان الذي أبحث عنه!

وضحك... أخيراً تغيّر مزاجه.

دنت ميرا من السياج المنخفض وانضمت إليها أيضاً ماين ونولين..

قالت ماين: أملت ألا يجد شيئاً.. كنت سأنام اليوم بطوله.

تثاءبت نولين: «وأنا أيضاً».

ضحكت ميرا ولو بغير لطف:

ـ لماذا لا تنامان باكراً لمرة واحدة؟

ردت نولين بجفاء:

ـ أويت أنت إلى الفراش باكراً لأنك لم تستمتعي بالحفلة ولأنك لم تستطيعي التفكير في شيء آخر.

هزت ميرا كتفيها. إنهن يقمن في فندق من الدرجة الأولى التسلية فيه

متوفرة لكنها لسبب ما أحست بالضجر.. وفيما كانت تنظر إلى الجزيرة البادية لأعينهم أحست أنها مسرورة لأنها نالت قسطاً وافياً من النوم ليلة أمس.. فإن كانت هذه الجزيرة هي الجزيرة التي يعيش فيها ثورن سواذلنغ فهذا يعني أنها بحاجة إلى حيويتها.. وقد لا يتاح لها سوى وقت قصير لتجذب اهتمامه ولتدفعه للاهتمام بها.

الآن بعدما أصبحت فرصة اللقاء به أمراً معقولاً.. صدمتها مشاعر التردد فللمرة الأولى تتساءل عن ثورن سواذلنغ كرجل، وليس كصورة لا وجه لها. ماذا لو وجدته بغيضاً؟ وماذا لو كان شخصاً خطراً؟ مع أن الأخوين سمولود أقسما أنه غير خطر.. إن التقت به الآن فستحكم عليه بالتأكيد.. ولكنها تشعر الآن أن من الأفضل الانتظار حتى يرحل الآخرون لتلتقي به، فعندئذ لن تكون لديها فرص كبيرة لتبديل رأيها.

أرسا دون المركب وربطه إلى رصيف صغير وجده في أحد الخلجان الصغيرة وكان يقوم بعمله بدقة وخبرة.. ولكن ميرا لم تهتم بما يفعل، نعم هي تعترف أنه قادر على القيام بأمور كثيرة.. ولكنه يصبح حاقداً سيء الطباع حين يواجه المشاكل.. وتكره أن تظن أن ثورن سواذلنغ مثله..

تمتم دون: فلنأمل أن يكون المكان لنا وحدنا.

بدت الجزيرة مهجورة.. أسرع دون فجال فيها جولة سريعة، أما الفتيات فرحن ينتظرن قراره.. أخيراً اختار بقعة اعتبرها مناسبة وبعد تركيز معداته، طلب من ميرا الوقوف ليصورها أولاً في الزي الذي ترتديه.. استغرق هذا وقتاً.. ثم أعادها إلى السفينة لتغير ثوبها وفي هذا الوقت راح يلتقط صوراً لماين ونولين.

مرت نصف ساعة قبل أن تعود. فقد أبدت السيدة توتال المسؤولة عن المجموعة، اهتماماً زائداً بماكياجها.. وبما أن دون لم ينته من تصوير الفتاتين الأخريتين.. جلست تحت ظل نخلة مروحية كبيرة فقد أشعرها هدوء الصباح بالغربة.. وارتجفت ميرا وهي تنظر إلى البحر.. كانت

الجزيرة جميلة، ولكنها موحشة..

لحظتئذ فقط، لمحت عينيها رجلاً يسير نحوهم. ولكنها لا تظنه رآها لأن اهتمامه انصب على المركب المربوط إلى الرصيف الخشبي.. ثم لمّا رأى دون حثّ الخطى بسرعة.

ولأنها لم تكن بعيدة كثيراً رأت ميرا الانزعاج على وجه دون. ولكنها كانت مشغولة بمراقبة ما يجري لذا لم تشعر بأي تعاطف مع دون. كان الغريب على مايبدو يسبح، فشعره مبتل وكأنه خرج لتوه من البحر.. لكن ما أثار اضطرابها هو مظهره العام، فكتفاه عريضتان، ووركاه مشدودان وقويان، أما عضلاته فممتولة.. لم تستطع رؤية وجهه لأنه يقف وظهره لها، ولكنها سحبت أنفاساً حادة بسبب ارتفاع رأسه بتعجرف.. حتى من هذه المسافة رأت أن طريقته في رفع رأسه شريرة.. وارتجفت ميرا بارتباك. لا تظنّه الرجل الذي وصفه لها الأخوان سمولود! فحسب روايتهما أن ثورن سواذلنغ رجل متواضع.. فإن كان هذا هو ثورن، فلا شك أنهما مجنونان لأنهما اعتقدا أن فتاة مثلها قادرة على التعامل مع رجل مثله!

بدل البقاء في مكانها هبّت واقفة وتسللت إلى مكان أقرب.. وصلت في الوقت المحدد إذ سمعت الغريب يقول لدون:

ـ أتدركون أنكم تعتدون على أملاك الآخرين؟ هذه أملاك خاصة.

لم يحاول دون إخفاء انزعاجه، وقال بصوت عدائي: أملاكك.. أنت؟

ـ أجل.

دفعت نبرة الحزم دون إلى التكلم بحذر.. فقد ردد اعتذاراً بأدب:

ـ أنا آسف.. لم يكن لدي فكرة.

تقبل الغريب الاعتذار بهزة رأس خفيفة من رأسه، وقال:

ـ سأكون شاكراً لكم إن رحلتم حالاً.

ـ ألا يمكننا التقاط المزيد من الصور؟ نحن في مهمة تصوير وأكاد أنتهي.

ارتدّ رأس الرجل إلى حيث تجلس ماين ونولين كحوريتي بحر جميلتين على بعض الصخور ولكنه لم يعبأ بهما بل قال: أرفض.

أدركت ميرا أن دون على وشك أن يفقد صبره.. فتحركت إلى الأمام طوعاً.. ولكن ما إن سمع الرجل وقع خطى وراءه حتى ارتدّ بسرعة، ثم سرعان ما تلاشى جو عدم الاكتراث فما إن وقع بصره عليها حتى تغيرت ملامح وجهه.. فارتفع حاجباه الأسودان قليلاً، وما هي إلا لحظة حتى راحا يتفرسان ببعضهما بعضاً بتوتر، ولم تستطع ميرا سحب بصرها بعيداً.. أما هو فقال وعيناه تضيفان:

ـ مرحباً! من أين أتيت؟

تمسك دون بأول خيط يصبّ في مصلحته، وقال بدون عجلة إنها ميرا لاوتون التي هي واحدة من فريقه وعارضة أزياء شهيرة في لندن.. ثم قدم ماين ونولين، ثم نفسه كمصور لهن.

هز الغريب رأسه للفتاتين، وصافح ميرا:

ـ اسمي سواذلنغ.. ثورن سواذلنغ.

أحست ميرا بصدمة غريبة.. ووجدت صعوبة كبيرة في الحفاظ على هدوئها خاصة ورأسها يدور.. بدا لها أن تعبير وجه ثورن سواذلنغ يلين فقد تراجع عن قراره وطلب من دون الاستمرار في عمله، قال ذلك دون أن تفارق عيناه ميرا.. ثم ابتسم لها حالما ابتعد دون عنهما:

ـ لم أتوقع أن أرى فتاة بجمالك على شاطئي هذا الصباح.

كان يحدجها بنظرات مفترسة.. إن عينيه فضيتان وقد أثرتا فيها بشكل غريب ولكن رغم تأثرها ردّت:

ـ لم نتوقع رؤية أحد.. خلناها جزيرة مهجورة.

ظل يمسك يدها مع أنها حاولت أن تحررها.

ـ أعيش هنا.. لكن عداي وعدا بضع خدم، ليس هناك أحد غيرنا.

شهقت ميرا بعد أن اقتنعت أنه ضالتها فكل ما حوله يدل عليه.. اسمه، عمره.. فهو يبدو في الرابعة والثلاثين، ويبدو أن له حظاً وافراً من الجاذبية التي ذكرها الأخوان سمولود. نظرت ميرا إلى عينيه وإلى كتفيه العريضتين، فسرت قشعريرة في جسدها.

رغم هذا استعادت وعيها وتوازنها وعادت إلى برودها وتعقلها.. تذكرت أنّ عليها الاستفادة من حسن حظها الذي جعله يعجب بها بدل قضاء الوقت في التأمل والترقب.. فابتسمت له وعلقت بأسى:

ـ لا شك أن العيش على جزيرة كهذه أمر رائع.. وأنا أحسدك عليه.

قال ممازحاً: «لست جادة.. فعلى فتاة بجمالك أن تنجذب إلى المدن الكبيرة».

ـ ليس دائماً.. أعترف أن المدينة تربح إن اخترت سكناً دائماً.. ولكنني أرضى بالاستقرار هنا أسبوعاً أو أسبوعين.

ابتسم: اعتبري نفسك مدعوة للبقاء قدر ما تشائين.

لم تدر ميرا هل كانت مرتبكة أم مستريحة حين نادى دون أنه مستعد لتصويرها وأضاف أنه نادم على إبعادها عنه:

ـ لن يطول هذا كثيراً سيد سواذلنغ.

قالت ميرا وثورن يترك أصابعها:

ـ لا نريد أن نعيقك.. مراقبة شيء كهذا قد يكون مملاً.. ولا شك أن عندك أشياء أخرى تقوم بها.

رد ثورن ببرود:

ـ لا أستطيع التفكير في شيء من هذا.

ثم ارتدّ إلى دون:

ـ أود منكم جميعاً أن تتناولوا الفطور معي بعد انتهائكم.

قبل دون بكل سرور:

ـ عظيم! سننتهي بعد ساعة.

راحت الكاميرا تتكتك، وراحت هي تنفذ تعليمات دون السريعة، ولكنها كانت تحس بعيني ثورن لا تفارقانها.. بعض أزيائها كانت مختصرة لذا شعرت بحرارة غير مألوفة تسري في وجنتيها.. لكنه لم يلاحظ هذا كما يبدو..

بعد انتهاء التصوير الصباحي، ساروا مع السيدة توتال وانطلقوا نحو منزل ثورن. كانت الفتيات الثلاثة قد ارتدين سراويل قصيرة وقمصاناً، وهي الملابس الوحيدة التي حملنها معهن على المركب.. مررت ميرا يداً على عضلات عنقها المتعبة.. فالوقوف أمام الكاميرا ساعات أمر طالما أتعبها.. آه! ما أروع أن تتوقف عن هذا ولو لفترة قصيرة.. وهذا ما قد تتمكن من التوصل إليه إن تمكنت من إبعاد ثورن سواذلنغ عن جزيرته.

فاجأها بل فاجأهم جميعاً منزله.. عرفت من الأخوين سمولود أنه يعيش في قصر منيف.. وكان المنزل الذي يقتربون منه ضخماً بما يكفي.. ولكنه منزل عملي أكثر منه منزل جميل.. ولم يكن تحدق به مروج خضراء.. أو ملاعب تنس أو مسبح.

همس ثورن في أذنها وهما يدخلان: ما رأيك بمنزلي؟

نظرت باستغراب إلى الأرض العارية وإلى الأثاث الخيزراني القاسي.. كان هناك مساحات خالية كثيرة ووجدت أنه منزل غير مريح.

قالت بصراحة: «إنه بحاجة إلى لمسة امرأة.. هل تحبه هكذا؟»

ابتسم: «فعلاً..».

لم يدهشها رده..

دنت منهما نولين التي سمعت الحديث:

ـ يعجبني! إنه لطيف بارد.. لقد سئمت الفنادق.

أدركت ميرا لعبة نولين.. وأحست بالراحة عندما لم يدعها ثورن للبقاء.. ولكنه دعاهم جميعاً إلى قضاء يومهم معه قائلاً برقّة:

ـ سيكون هذا تغييراً وستشعرون بالحرية في فعل ما تريدون.

قبل الجميع الدعوة إلا دون الذي لم يبدُ معجباً بما ينتظره وقال على مضض:

ـ أعتقد أن بإمكاننا قضاء بضع ساعات.. ولكن يجب أن نعود إلى باربادوس بعد الظهر، فأمامنا عمل.. والمفترض أننا هنا لنعمل.

مرّ الصباح بصفاء رغم ملاحظات دون الصارمة.. قدم خدم ثورن فطوراً لذيذاً وعملوا على خدمتهم بدقة.. نعم إن هذا المنزل يفتقر إلى الراحة الطبيعية، ولكن الطعام والخدمة أمران عظيمان.. وبسبب وجود الخدم شعرت ميرا بالأمان.. فإن عادت إلى هنا فهذا يعني أنها لن تكون بمفردها مع ثورن..

بعد انتهاء الطعام عرض ثورن عليهم جولة في الجزيرة.. ولكن في هذه المرة لم يقبل الدعوة سوى ميرا إذ رغب الآخرون في الاستلقاء تحت الشمس والسباحة. نظرت نولين إلى ثورن بأسى ولكنها أعلنت عن كراهيتها للسير.

ولم تكن ميرا مغرمة بالسير إلى ذلك الحد، ولكنها حريصة على استكشاف كل ما يتعلق بثورن سواذلنغ..

أمامها وقت طويل قبل أن تقول للأخوين سمولود إنها غيرت رأيها بشأن المهمة التي يريدانها.. أرجعت خصلة ذهبية حمراء إلى مكانها ووضعت نظارة «البولورويد» على أنفها الصغير الأنيق، ولحقت بثورن وملؤها الثقة بالنفس.

* * *

٢ ـ نار وجليد

يقع منزل ثورن سواذلنغ على مرتفع يشرف على الشاطىء، تحيط به مناظر رائعة وبحر أزرق صاف.. ارتدى الجزء الأساسي من جبال الجزيرة حلة خضراء، وعجّت الوديان بالأزهار الاستوائية.. فيما كانا يتجولان أذهلتها رؤية خمائل مزهرة متنوعة الأجناس... وما إن أصبح العشب المتنامي كثيفاً بحيث يصلح للسير بصعوبة حتى اقترح ثورن أن ينزلا إلى الشاطىء.

قال مبتسماً:

ـ لن يشكرني مصورك أبداً إن أعدتك إليه والخدوش تدميك.

وافقت بجفاء: «لا.. لن يشكرك».

نظر إليها ثورن بسرعة: ألستما على وفاق؟

ـ لا.. ليس كما يرغب.

هز كتفيه ساخراً:

ـ أعتقد أنك تعرفين كيف توقفينه عند حده. منذ متى تعملين عارضة أزياء؟

ـ منذ وفاة والديّ.. بعد وفاتهما كان لا بد لي أن أجد عملاً.. كانا يهتمان بي كثيراً.. حتى أنهما لم يتركا لي مالاً.

لامس التفهم عينيه الرماديتين اللتين نظرتا إليها بمكر، ولكنه قال ببساطة:

ـ لا أظنه أمراً صعباً.

ردت بحدة: «إنه وقف على الظروف.. أنا مفلسة وما يزيد الطين بلة أنه ليس لي مهنة أعتاش منها».

ـ أنت شابة وهذا يعني أنك قادرة على التدرب على مهنة.

ـ لكنني كسولة، ولهذا السبب أتمسك بعرض الأزياء.. فبين مهمة ومهمة، يمكنني أن أفعل ما يحلو لي.

سألها: ألا يمكنك العمل مع مصور يعجبك؟ لن يكون العمل مع شخص يريد جذبك إلى أحضانه طوال الوقت أمراً مرحاً.

ميرا معتادة على مثل هذه الصراحة في الأوساط التي تعيش فيها، لذا لم تشعر بالإهانة عندما سمعت ما قال..

ابتسمت ببرود: ليس الأمر سهلاً على الدوام.. فما إن أكتشف أنني لا أملك قسط الرهن على شقتي، حتى أقبل بأول عرض ممكن.

ـ مثل مجيئك إلى هنا؟

ـ أجل.

ابتسم: حسناً.. ولماذا أتذمر أنا؟

ما إن ابتسم ثورن لها حتى ردّت له الابتسام بطريقة لا إرادية.. لن يكون صعباً عليها الاتفاق معه.. مع أنها لا تعرف أي نوع من الرجال هو، فكل ما تعرف عنه أنه ودود وجذاب وليس عليها إلا اكتشاف الباقي.. بدا معجباً بها.. ولا شك أن لقاءه ضربة حظ وقد صممت على الاستفادة من هذه الفرصة قدر المستطاع.

سألت: هل تعيش هنا طوال الوقت؟

نزعت صندالها ودست أطراف قدميها في الرمل الأبيض، وهما يسيران على الشاطىء.. كان ثورن يسير معها ولكنه لم يحاول أن يلمسها.. نظر إلى البعيد وتكلم بعدم تركيز:

ـ معظم الوقت.

ـ إنها جزيرة جميلة.. لكن ألا تضجر منها؟

ـ أحياناً أضجر من نفسي.

أوحت له بأنها تتكلم بشكل عفوي:

ـ أعتقد أن بإمكانك بيعها في أي وقت.

هز رأسه: طالما فكرت في الخلاص منها.

ـ ولكنك لم تتخلص منها على ما يبدو.

تركت عيناه المحيط الأزرق المتألق لتعودا إلى الفتاة الواقفة إلى جواره.

ـ ربما أنا مثلك، أستمتع بالتكاسل.

انحنت ميرا والتقطت صدفة فضية وهي تكبت بحزم فضولها المتزايد.. فكرت أن من الحكمة في هذه المرحلة عدم طرح أسئلة كثيرة قد تثير ريبته.. لا تصدق أنه كسول. تساءلت كيف يُمضي أوقاته؟

أضافت ذاكرة تعليقات من الممكن أن يطرحها أي زائر:

ـ لم أزر جزيرة خاصة.. كم هي مساحتها؟

ـ حوالى ميل طولاً.. لكن العرض متفاوت.

ـ وهل هناك جزر كثيرة مثلها؟

ـ الآلاف وهي منتشرة في الكاريبي. ولكن عدداً كبيراً منها غير مأهول ولا يستفيد منه أحد.. إلى أمثال هذه الجزر تسعى شركات التنمية والتطوير.

أحست ميرا بالإحباط لأنها شعرت باللون الأحمر يتسلل إلى بشرتها.. فهي غير معتادة على الشعور بالحرج، وترفض أن تصدق هذا.. فضحكت بخفة.

ـ أتصور أن بعض هذه الشركات قدمت العروض إليك.

ـ قُدمت إليّ عروض أغراني بعضها بالقبول.

نظر إلى الأدغال أمامهما:

- إحدى العقبات، هي المعركة المتواصلة ضد الطبيعة.

هكذا أفضل وأفضل.. اقترحت ميرا بعفوية: «تجد أنها مكان يوفر لك كافة أنواع التسلية».

- نادراً ما أقوم بهذا.. من يأتي إلى هنا يأتي بدافع الفضول أو البحث العلمي.

- لا أعتبر المقام هنا فضولاً.. لديك الخدم ولديك الكثير لتقدمه.. هذا عدا البحر والرمل.

ضحك ثورن بتسلية ظاهرة:

- قد يخبو كل شيء في النهاية.

- هذا ليس رأي السيدات اللواتي يزرنك بالتأكيد.

ابتسم: ما رأيك بالعيش هنا؟

ردت ببطء: «لست متأكدة».

لن يفيدها التظاهر بأنها المكان الذي لا تريد مفارقته.

ابتسم بحذر بسبب ردّها وتابع المسير، فراحت تنظر إلى جسده الطويل... إن جاذبية هذا الرجل الواضحة قد تكون أسوأ ما ستضطر إلى مواجهته.. هذا إذا كتب لخطة الأخوين سمولود النجاح.

ابتلعت غصة خوف عندما توقف منتظراً قدومها.. عندما لحقت به شعرت بعينيه تجولان عليها بدفء، ثم قال بصوت أجش:

- إذا كان زواري جميعهم مثلك فلن أرغب أن يغادروا جزيرتي أبداً.

أجبرت نفسها على النظر إليه بعبث مرة أخرى:

- قد يلزم هذا بعض الإقناع.

أليس من الأفضل لها أن تعرف إن كانت قادرة على توجيهه؟ بعد بضعة أيام قد يفوت الأوان.

سمعت أنفاسه تخرج بحدة فقوّت عزيمتها أمام ما تعرف أنها تفعله.. وكلاهما ينتهز الفرصة.. فثورن يريد إشباع ظمأ لم يروه منذ أسابيع بسبب

عزلته.. وهي تحاول أن تجد رداً على تساؤل ما كان يجب أن تطرحه..

اتجهت يده إلى خصرها وشدها ببطء إليه. لكنه لم يستعجلها.. فقد بدا أنه يدفع كل حركة يقوم بها بمعان مضاعفة.. تسمّرت في مكانها وهي ترى ذراعيه تندسان حولها.. ولتتحدى برودتها خلعت النظارة، وتركتها تقع على الرمل.. ثم رأت ابتسامة الرضى على شفتيه، وكان عليها أن تشد على أسنانها لتمنع نفسها من المقاومة.. ثم بدأ قلبها يخفق بسرعة..

بحذر، وكأنما يسعى إلى طمأنتها أخذت يداه تضمانها بصبر متناهٍ..

سبق أن تلقت ميرا مثل هذه المداعبات وتعرف بالضبط ما ستكون عليه ردة فعلها.. كل شيء فيها برد وجمد حتى أحست أنها قطعة من ثلج. لقد تعبت كثيراً من هذه التجربة، فالنتيجة دائماً هي ذاتها.. وهذا البرود بحد ذاته هو ما دعاها في النهاية إلى قبول طلب بيري.. نعم تعرف أنه لم يؤثر فيها أكثر من غيره من الرجال ولكنها رضيت لأنه سيؤمن لها الراحة المعتادة عليها والاسم العريق.

كانت ردة فعلها مع ثورن سواذلنغ مماثلة لما هي معتادة عليه.. حتى تساءلت كيف ظنت عندما أخذها بين ذراعيه أن العكس سيحدث.. بعد لحظات شعرت بالامتنان لأنها لم تتأثر.. فهذا سيسهل عليها الأمور أكثر، فعندما ستتركه لن تشعر بأي ندم. ولكنها عادت فوبخت نفسها، أليس من الأفضل أن تقدّم له بعض التشجيع؟ عندما تمتم أنها جميلة ضحكت برقّة، وعقدت ذراعيها حول عنقه.

حتى الآن لم يكن قد عانقها، ولكن ما إن وجدت ذراعاها طريقهما إلى عنقه حتى صاح بصوت أجش وضمها إليه بقوة.

استعادت وعيها عندما شعرت بالخوف يسري في أوصالها، لكنها بذلت جهداً لتجعله يؤمن أنها تستمتع.

تمتم بشيء دل على أن استجابتها لم ترضه. عندما خفف من ضغط

ذراعيه بالتدريج ظلت ميرا ساكنة بين ذراعيه، ونظرت إليه بحيرة. في آخر لحظة وقبل أن يتوقف عن ضمها بشدة، شعرت بالدم الحار يتدفق إلى شرايينها. لم تكن متأكدة إن كان السبب حر الظهيرة أم شيء آخر.

في جميع الأحوال شهقت شهقة خوف وانتزعت نفسها منه. مع ذلك وفي اللحظة ذاتها راعها أن تلاحظ أن صده لا يصبّ أبداً في خانة مصلحتها.. لن يحقق لها شيئاً.

بسرعة غضت طرفها لتخفي عنه الخوف والقرف في عينيها.

ـ آسفة! فاجأتني..

التقطت نظارتها على غير هدى، وحاولت الظهور بمظهر المرأة العاجزة المتزعزعة الثقة بالنفس.

سمعته يقول ساخراً إنما برقة:

ـ وأنا تفاجأت من نفسي لأنني لا أعانق عادة فتاة لم ألتقها إلا منذ وقت قصير.. ولكنني وجدتك إغراءك رهيباً.

ـ ربما تحس بالوحشة؟

لم ينكر: أكون أحياناً مستوحشاً.. ولكن ذلك ليس عذراً لفقداني السيطرة على أعصابي.. ربما السبب أنك مدمّرة..

لأنها أحست بأنه يمازحها، ردت ابتسامته الساخرة:

ـ كان عليّ أن أغني مقابل عشائي!

ـ إن كنت تشيرين إلى الفطور أقل إنني لا أعتبرك مدينة لي بشيء.

ـ استخدام جزيرتك مجاناً.

التوى فمه وبرقت عيناه مكراً:

ـ لقد وفرتم لي بعض التسلية.

ـ وهل نظرت إلى عناقي على الضوء ذاته؟

عبس فجأة:

ـ لا.. على أي حال.. ماذا يعني عناق بسيط؟

أحست بالجرح بسبب نظرته إلى عناقهما:

ـ وهذا كل ما ستحصل عليه.

التوى فمه بمرح وهذا ما أرسل قشعريرة إنذار إلى كيانها.

قال بثقة: «لا تكوني واثقة من هذا».

غضبت من نفسها لأنها تفوهت بالكلمات قبل أن تفكر فيها.. عضت على شفتها بتردد. إن أظهرت عدم حماسها لعناقه/أو لرؤيته فقد يرتاب بأمرها.. عندما لم ترد أمسك يدها بجو من التفوق واقتادها إلى قمة الصخور مرة أخرى.

على الطريق، لم يعاود حديثهما السابق، أما ميرا فسرها أن تجد الوقت لتسيطر على نفسها ولتفكر في الخطوة التالية. وحده الغبي يسيء تقدير ثورن سواذلنغ وذكاءه.. إن وراء تصرفه العفوي، رجلاً صارماً لا يلاحظه المرء للوهلة الأولى.. ولكنه من ناحية أخرى ينجذب كسائر الرجال إلى الوجه الجميل وهذه نقطة في صالحها دون شك.

بعد الغداء ودعهم ثورن بعدما أصرّ دون على العودة إلى بارباروس..

قاومت ميرا إغراء يدفعها إلى السؤال إن كانت ستراه مرة أخرى.. فإن لم يسعى إليها فعليها الاتصال به بعد عودة الآخرين إلى انكلترا.. لكن بعض الثقة بالنفس راحت تضعف.. إن استمتاع ثورن بقضاء بضع ساعات معها لا يعني أنه لن ينساها بسهولة حالما تبتعد عن نظره. وما إن مازحتها ماين ونولين بأنه لم يستطع رفع نظره عنها حتى شعرت بالامتنان، ولكنها لم تتأثر كثيراً.

وقت العشاء قال لها دون:

ـ حذار من أمثال سواذلنغ، ميرا.. أنه يأكل الفتيات الصغيرات مثيلاتك على الفطور.

ردت بحدة: إنها أمثولة قديمة العهد.

ـ ربما.. لكنها ما زالت تنطبق أحياناً.

ضحكت فهي تستمتع أحياناً باستفزازه:

- أنا أتعامل مع أمثاله من الرجال منذ سنوات دون.. ولم أخسر شيئاً حتى الآن.

- إذا كان هذا إشارة إلى أنك ما زلت كما كنت يوم ولدتك أمك، فأنا أميل إلى تصديقك.. لأنك مخلوقة باردة ميرا.. أنت مدللة وتعتقدين أن العالم مدين لك.. مع ذلك، ما زلت ساذجة.. أنت مترعة الثقة بالنفس، ولكنك ذات يوم ستخرجين خاسرة.. لا تقولي إنني لم أحذرك.

حدقت ميرا إليه.. إنها معتادة على رأيه فيها.. فلأنها تصده دوماً يحاول أن يحبطها.. إنه حقود، وهي تكرهه! لذا لن تشعر بأقل انزعاج إن تخلصت منه! رغبت في رميه بشيء، ولكنها قالت ساخرة:

- لا أكاد أصدق أن السيد سواذلنغ يشكل أي نوع من الخطر.

كانت ماين ونولين تستمعان ولكنهما معتادتان على سماع إهانات دون لميرا.

قالت نولين ببطء:

- إن أظهر إعجابه بي فلن أهتم بالخطر الذي يشكله ثورن. إن أمثاله من الرجال قلة قليلة.

ابتسمت ميرا بامتنان للسيدة توتال لأنها تدخلت وغيرت دفة الحديث.. فثورن سواذلنغ واحد يكفيها الآن، مع أنها لا تشك أبداً أنها قادرة على التعامل معه حين يحين الوقت.. لكن الوسائل التي ستعتمدها في سبيل إقناعه بترك جزيرته وقدرتها على تنفيذها، هي التي تقلقها.. عندما ضمها ثورن ذلك الصباح بين ذراعيه شعرت بشيء يدب في شرايينها.. وهذا ما أرّقها وحيّرها.

عندما تلقت ذلك المساء مخابرة من لندن ذهبت بشوق للرد عليها. كانت المخابرة من تالبوت سمولود الذي طلب أن يعرف لماذا ليس لديها هاتف في غرفتها، فشرحت له انها تشارك الغرفة مع فتاتين أخريين..

عندئذ طلب منها أن تستأجر بعد رحيل الجميع غرفة مستقلة خاصة فيها كافة التسهيلات.

- أما في الوقت الراهن فحاذري كي يكون صوتك خفيضاً وكوني حذرة فيما تقولينه.

ليست المرة الأولى اليوم التي ترغب أن تقول لشخص ما أن يذهب إلى الجحيم. عندما أخبرته بما حدث اليوم بدا تالبوت سعيداً، ولكن هذا جعلها تحس بانقباض.

قال: أنت تتقدمين أكثر مما توقعت.. ألم تغيري رأيك؟

- لا..

ولكنه التقط لمحة من ترددها فقال بصوت مشبع بالتحذير:

- أعرف أنك ستتمسكين بالفرصة ما إن تدركي ما ستجنينه من وراء نجاحك.

كان يبلغها أنه لن يكون هناك حدود لكرمه معها إن سار كل شيء على ما يرام.

في المساء التالي جاء ثورن إلى الفندق وظل حتى العشاء، كانت ماين أول من رآه فأسرعت تزفّ الخبر بأنفاس مقطوعة:

- ثورن يتكلم مع مدير الفندق.. أظنه جاء يرانا.

لم تقل ميرا شيئاً.. أما دون فنظر إليها بريبة.. فعرفت أنه يتساءل عما إذا رتبت أمر رؤية ثورن مرة أخرى.

نظرت إليها نولين باستسلام:

- بعض الناس محظوظون.. لا شك أنه معجب بك ميرا.. ألا تشعرين بالرضى؟

ردت ميرا ببرود: «ربما جاء إلى هنا لأسباب أخرى.. فهو يعيش هنا ولا شك أن لديه معارف كثر».

ولكن عندما تقدم ثورن إلى الزاوية التي يتناولون فيها بعض المرطبات

قبل العشاء، شعرت بشيء من الانتصار.. وتضاعف هذا الإحساس عندما جالت عيناه بسرعة بالمجموعة حتى استقرتا عليها.. لم يحاول إخفاء سروره برؤيتها، أما هي فتنعمت بدفء ابتسامته ولم تظن قط أن مهمتها ستكون بهذه السهولة.

انتزع عينيه عن وجه ميرا الجميل وخاطب المجموعة:

ـ مساء الخير.. أتمانعون في الانضمام إليكم؟

رحبت الفتيات والسيدة توتال، به بسعادة. أما دون فتجهم وتمتم:

ـ أعتقد أننا مدينون لك.

عندما تذكرت ميرا أنها استخدمت تقريباً التعبير ذاته، تورد وجهها.. لكن ثورن لم يرد بل تجاهل دون وطلب عصيراً.. بعدما وضع الساقي كوب عصير برتقال أمام ميرا وابتعد، رفع ثورن حاجبين معبرين وسأل ساخراً:

ـ هل تجدين التقشف مفيد للنفس؟

انتفضت ميرا عندما رأته فجأة إلى جانبها:

ـ ليس بشكل خاص.. ولكنني أفضل العمل في الصباح مع شيء من عصير البرتقال.

ضحك: «فتاة حكيمة».

أعجبتها بزته البيضاء التي تحتضن قده الطويل بروعة.. كان عرض منكبيه مؤثراً وكذلك كان رأسه المرتفع بتعجرف.. في هذه اللحظة لم تفهم الشعور الذي يحرّك معدتها، وعزته إلى الجوع.

كانت مسرورة لأنها تظهر بأفضل حلة. فالفستان الشوفين الأسود الجذاب الذي اختارت ارتداءه كان رائع التفصيل وأنيقاً. وهو أفضل ثوب يلفت اهتمام الرجل، كان شعرها مرتداً في خصل ذهبية حمراء فكشف عن عنق طويلة نحيلة رقيقة.. وكانت قد تعطرت بعطرها الباريسي المفضل.. وتزينت بعقد من الكريستال المحفور يدوياً معلقاً على سلسلة

من أحجار الكوارتز على شكل دموع حول عنقها، إضافة إلى سوارها الألماسي وساعتها «الكارتيه» التي لا تستطيع الفراق عنها أبداً. شعرت بأنها كوفئت على عنايتها بمظهرها فقد راحت عيناه تطوفان بها بإعجاب ظاهر.

كانت الساعة تقارب التاسعة حين توجهوا لتناول العشاء.. فيما بعد بدأ الرقص فدعا ثورن كل من ماين ونولين إلى الرقص أولاً ثم طلب ميرا التي شعرت بنفاد صبر غريب وهي تنتظر دورها.. لقد رقصت مع دون لكنها لم تتمتع بالرقص معه، فقد شدّها إليه وعيناه مليئتان بالشر.. راقبها وهي تتحدث إلى ثورن وقت العشاء، لذا عرفت أنه سيسبب لها وقتاً عصيباً في الغد.. قد يسامحها على صدها إياه ولكن بعدما رآها تفضل ثورن عليه فلن يسامحها أبداً.

همس ثورن في أذنها: أنت راقصة ممتازة.. وستكونين أفضل حالاً لو استرخيت.

استغربت أن يشعر بشيء لم تكن هي نفسها تعيه، فهي لم تشعر بهذا التوتر إلا بعدما ذكره لها.

ردت بخفة وحاولت إخفاء حقيقة برودها عنه:

ـ ربما لدي مشاكل لن تسمح لي بالاسترخاء.

ابتسم: أرفض أن أصدق أن فتاة مثلك لديها أية مشاكل.

تمتمت بجفاء: «ستدهشك كثرتها».

هز كتفيه: بل سيدهشني الاعتراف بأنك جادة.

أبعدها قليلاً وبرقت عيناه بتسلية.

ـ يعجبني فستانك.

تمهل وهو يلقي نظرة على الفستان.. أما ميرا فامتقع وجهها وحاول إقفال المسافة الفاصلة بينهما لأن نظرته طالت أكثر من اللازم على قدّها الرشيق.

ضحك برقة وأساء تفسير توردها. تمتم بصوت أجش: «اشتقت لي؟»

وضمها إليه مجدداً.

أرادت إنكار هذا بشدة مع أنها تذكرت أن من الأفضل لها أن توافق.. ثقة ثورن بنفسه أزعجتها.. لذا وجدت أنه لن تضيره الصدمة.. فعلى ما يبدو أنه مؤمن أنه الاستجابة لدعوات كل الفتيات! قد لا يعجبه أن يستغفله أحد لكنه يستحق هذا.. فسيدرك أنه لا يستطيع أن يربح دوماً.. ثم لماذا تعرض مستقبلها للخطر من أجل رجل يمتلك جزيرة لا يحبها كثيراً؟ فحسب كلماته أنه طالما فكر في الافتراق عنها... عندما تذهب للإقامة عنده ستحاول الإسراع بإقناعه في التخلي عنها.

سمعته يقول:

ـ يؤسفني أنك مضطرة للعودة على انكلترا.. كنت سأستمتع بالتعرف إليك.

عضت شفتها بقلق.. هل يعني هذا أنه يتقبل أمر رحيلها؟

ابتسمت متعمدة:

ـ نحن.. أعني أنا.. لدي يوم أو يومين.

برقت عيناه الرماديتان بإعجاب: عظيم!

ثم عاد يراقصها ولكنه ابتعد بها عن الشرفة التي يرقصان عليها إلى مكان أعمق ظلالاً. وقال:

ـ فلنقم بنزهة أخرى على الشاطىء.. فقد تمتعت بآخر نزهة قمنا بها لذا أرغب في تكرارها..

سرعان ما عرفت قصده، فما إن ظهر البحر لعيونهما حتى توقف وقربها منه، ثم راح يداعب شعرها... وقفا متعانقين لحظات طويلة.. ولكن هذا التواصل جعلها تشعر بمشاعر عميقة لم تفهمها، ولم تفهم ما إذا كان الخفقان الذي تسمعه في أذنيها هو خفقان قلبه أم قلبها.. ثم أحست

بمزيج من النار والثلج يندفع في شرايينها، مزيج جديد ومخيف، حاولت عدم التفكير فيه ولكنها سرعان ما تشنجت بين ذراعيه.

ـ لا؟ هل أستعجل الأمور؟

نظرت عيناه بشدة إلى وجهها الشاحب شحوباً لم تتمكن من إخفائه.

همست: «نعم».

ضحك برقة ولم يغضب:

ـ أتحبين أن أتودد إليك بطريقة لائقة؟

جاهدت ميرا لتستجمع نفسها:

ـ أتصرف كمراهقة في أول موعد غرامي لها.

ابتسم لها بحنان.. وقال:

ـ لا أظنك تملكين خبرة كبيرة.. ولكن ليس لدينا وقت طويل.

ـ وقت.. من أجل ماذا؟

ـ من يدري؟

شدها ليقفا تحت أغصان شجرة نخل فتصاعد التوتر في نفس ميرا من جديد.. إنه يعاملها بأناة وصبر ولكنها تشعر بعزمه على تنفيذ ما يريد.

قالت: «ثورن.. ألا يمكنك الانتظار؟»

ـ أنتظر ماذا؟ كل ما أسعى إليه هو مكان هادىء أقول فيه كم أنت جميلة.

ضحكت لا إرادياً: «سبق أن قلت لي هذا».

ابتسم: «آه! ولكن بعض الأمور تتحمل التكرار، وهذه مجرد بداية.. فأنت عدا الوجه الجميل، تملكين قدّاً جميلاً.. والحقيقة أنني أحاول أن أجد كلمات مناسبة لوصفه.. ولكنك لا تقدمين لي تشجيعاً».

ابتلعت ميرا ريقها.. إنه يحاول ممازحتها.

قالت معترضة:

ـ ولكننا لم نتعارف إلا منذ بضع ساعات.

قال: لقد غازلت نساء عرفتهن مدة أقصر.

أحست أنه يتعمد إثارتها، فنظرت إليه مؤنبة:

ـ هل تحاول أن تصدمني؟

ضحك: وكيف عرفت؟

ـ ليس الأمر صعباً.

أمسك ذقنها بلطف متملق:

ـ أسعى فقط إلى.. تعاونك.

ـ لن أتعاون مع ما يدور في خلدك!

رفضت الابتسام له، ولكن لسانها السريع الرد أثار تسليته..

ـ كيف تعرفين ما يدور في خلدي.. سيدتي؟

ـ لأنه ما يدور في خلد كل الرجال عادة..

قاطعها وهو يشدها إليه:

ـ وهل ألاحظ في كلامك شيئاً من السخرية؟ لا تخافي من نواياي حبيبتي، فلا أنكر أنني أريدك بقوة، ولكنني لن أقدم أبداً على أمر بدون إرادتك.

لماذا ينبئها حدسها بأنها كلمات سيتذكرها يوماً بمرارة؟

ردت بغضب: «لا أحد يكلمني بهذه الطريقة».

ـ إذن ربما حان الوقت ليقول لك أحد هذا.

أوقف لها مقاومتها، وقال آمراً: عانقيني!

من أجل تحقيق الهدف الذي تصبو إليه ميرا شعرت أنها مضطرة إلى الإطاعة.. فرفعت ذراعيها وعقدتهما حول عنقه.. حاولت عدم التفكير في أي شيء، ولكن عناقه كان مدمراً.. فقد هبّ شوق دفين في أعماقها وازداد عمقاً حتى أصبح ألماً.. وشعرت بأنها غير قادرة على تحمل مثل هذه المشاعر أكثر من هذا:

ـ دعني!

ـ لماذا لا تسترخين؟

ـ لأنني.. لا أستطيع..

ـ لا تكوني حمقاء!

فجأة شعرت بدوار، وبوهن في ساقيها.. فحاولت بلا طائل المقاومة للتهرب من ضغط ذراعيه المتزايد.. عرفت أن عليها إيقافه، ولكنها شعرت بالعجز أمامه.. بدا لها أن رشدها هجرها لأنها أصبحت أسيرة قوى لا تستطيع معها سوى الاستسلام.. وبدل أن يصبح جسدها قطعة من جليد، هدّد بالاحتراق.

فجأة أبعدها ثورن عنه وتمتم بعنف وبصوت أجش من العاطفة:

ـ إذا كنت أريد الوفاء بالوعد الذي قطعته لك فمن الأفضل أن نعود إلى الفندق.

نظرت ميرا إليه بارتباك. ما زالت مشوشة الفكر بسبب جاذبية المشاعر التي أيقظها في أعماقها.

سألها وهما عائدان بصوت ما زال أجشّ:

ـ هل يعجبك الفندق؟

ردت دونما اكتراث:

ـ لا بأس به.. فهو لا يختلف عن آلاف مثله.

ـ ظننت أنك متأثرة به.. فالنساء يعجبن به عادة.. لأنه فندق خمس نجوم.

فكرت ميرا بعدد الأماكن المماثلة التي أقامت فيها مع والديها، وعبست.. طالما راقتها الفنادق الفخمة.. ولكنها لا تفهم لماذا لا تروق لها الآن.. تجنبت الإجابة المباشرة لأنها لا تستطيع شرح السبب حتى لنفسها.

قالت مراوغة:

ـ عندما كان والداي على قيد الحياة كان لدينا منزل في الريف كنت

أحب الذهاب إليه . . كان لكل الجيران أولاد كانوا يدفعون والدتي إلى حد الجنون! لكنني كنت أحبهم ربما لأنني طفلة وحيدة . . وعندما كبرت قررت أن أنجب دزينة من الأولاد على الأقل . . كان هذا قبل أن أكتشف أنهم لا يأتون من تحت شجر الكشمش البري .

ضحك ثورن : «كنت أعتقد أن طائر اللقلق هو الذي يجلبهم» .

ـ ألديك أولاد ثورن؟

ـ لم أكن قط متهوراً إلى هذا الحد .

تورّد وجهها وقالت :

ـ كنت أتساءل ما إذا كنت مطلقاً . . فأنا أعرف أنك لست متزوجاً في الوقت الحالي .

قطب : كيف لك أن تكوني على هذه الدرجة من الثقة؟

باركت ميرا لسانها الغبي :

ـ أعتقد أنني . . وجدته أمراً مسلماً به .

ـ لأنني غازلتك؟

هزت رأسها كالبلهاء ، فقال بجفاء :

ـ لست متزوجاً ، لكن كان يمكن أن أكون متزوجاً وعليك أن تكوني أكثر حذراً في المستقبل .

كم يظن عدد الرجال الذين خرجت معهم؟

كشرت وجهها في وجهه :

ـ شكراً لك! سأتذكر هذا!

ـ هذا أفضل!

ما إن وصلا إلى الشرفة حتى طلبت من نفسها أن تكون حذرة . . ولكن ما الذي جعلها تذكر حبها للأولاد؟ إنها معلومات طالما احتفظت بها لنفسها . ولكن المشكلة أن الكلام مع ثورن سواذلنغ سهل . والتجاذب الغريب بينهما قد يجعل المهمة التي يجب أن تقوم بها أسهل ، ولكنها

ستكون ذات مخاطر في الوقت عينه . . لذا عليها أن تكون حذرة في المستقبل لئلا تبوح بمعلومات أخرى .

بعد ساعة وقف ثورن ليغادر ، فسألت بلهفة ظاهرة إن كان راجعاً مرة أخرى . . بالأمس وهي على جزيرته ، لم تستطع طرح مثل هذا السؤال عليه ، أما الآن فمن المهم أن توحي له برغبتها في رؤيته مجدداً .

أمسك يدها بلطف والابتسامة على وجهه القاسي : سأعود غداً .

ردت ميرا ابتسامته : سأنتظرك .

لكن الابتسامة تلاشت عندما رفع يدها إلى شفتيه . . وقال بهدوء وهو يحدّق في عينيها مباشرة :

ـ نعم عليك أن تنتظري . .

* * *

٣ ـ بدأت تذوب

كان دون دورسيت في أسوأ أمزجته في الصباح التالي. . فلم تسرّه أبداً رؤية ميرا عائدة من الشاطىء وهي تمسك يد ثورن. . ولم تعجبه طريقة ثورن في مراقصتها. . فقد ضمها بين ذراعيه غير عابئ بنظرات دون المتحجرة. . مع أنه حذرها مازحاً أن عليها إقفال بابها بالمفتاح بسبب الطريقة التي كان ينظر بها دون إليها.

ردت ميرا:

ـ أنا أتشارك غرفة مع السيدة توتال.

ابتسم: عظيم.

وبدا مطمئناً لأنها لن تكون عرضة لتحرشات دون غير المرحب بها.

في الصباح اعترف الجميع بصمت أن العمل كان كارثة. عادت الفرقة إلى الخروج مرة أخرى بعد الغداء وظلّ دون سيء المزاج ولكن السيدة توتال واجهته بالأمر. ومع ذلك لم يتغير مزاجه، بل راح يصرخ في وجه نولين حتى أجهشت بالبكاء، فأمرها عندئذ بالانسحاب حتى تستعيد هدوءها وتتعلم القيام بعملها على وجه أكمل.

ثم بدأ بالمسكينة ماين ولمّا حان دور ميرا طلبت من ربها الصبر، ثم رأت ثورن سواذلنغ يراقبها فشعرت بالراحة. . تساءلت متى جاء وكيف وجد مكان التصوير. . لا شك أن مدير الفندق أخبره.

ولكن بدل أن يطلب دون منه الابتعاد عن موقع التصوير توقف عن

العبوس ودعاه إلى المساعدة في بعض المشاهد.

أصغت ميرا إلى الحديث الدائر بين الرجلين، بمزيج من المشاعر. . فقد أدرك دون أن ثورن يشكل خلفية جذابة رائعة للمشاهد التي يلتقطها. . فهذا النوع من الصور يجعل القارئات ينظرن مرتين إلى أية صفحة يظهر فيها. . هكذا انتصرت نظرته المهنية على الجانب السوداوي في طبيعته. . ولكنها لم تكن تثق به. . وتمنت لو رفض ثورن.

طلب دون من ثورن أن يخلع قميصه ويقف مستنداً إلى شجرة خلف ميرا. . فأطاعه ثورن وخلع القميص عن كتفيه العريضتين.

قال دون ساخراً:

ـ تستمتع الفتيات بالعرض. . لم يشاهدن رجلاً حقيقياً من قبل.

ضحك ثورن بعدم اكتراث:

ـ أستطيع تحمل بعض الإعجاب. . ولن يطيح بعقلي.

صاحت ميرا التي شعرت بالغيظ والحنق:

ـ هيا فلننتهِ من هذا.

عادت إلى الفندق مع ثورن في السيارة التي استعارها. . سألت: لم أعتقدك آتياً باكراً هكذا.

ابتسم: كان لدي موعد. . ولهذا جئت باكراً.

تورّد وجهها قليلاً:

ـ أوه. . وكيف تأتي من جزيرتك إلى هنا؟ عندك مركب بلا شك.

ـ نعم مركب صغير.

أرجعت بنفاد صبر خصلة من شعرها إلى الوراء:

ـ ما أروع أن أراك. . لكنني كنت أفضل لو انتظرت في الفندق، لأنني أعتبر أن دون استغلك.

ضحك برقة: أما أنا فأظنني استغليته.

عرفت ما يعني ولكنها فضلت التظاهر بعدم الفهم. .

ـ لا أظن انتشار صورك على كل صفحات المجلات في لندن أمر ممتع لك.

ـ ليس لدي ما أخبئه.

ازداد عمق لون وجهها، فأساء فهم شعورها بالذنب وظنه غضباً.. فقال متملقاً:

ـ هيا الآن حبيبتي.. لولا وجودي لما كتبت لك النجاة.. لقد رأيت ما فعله القذر بصديقتيك.

شهقت: «إذن لهذا السبب قبلت».

ـ وهل تتصورين أنني كنت بحاجة إلى دافع أقوى منه؟ والآن ألن تتوقفي عن الغضب وتقولي شكراً؟

شعرت ميرا بالخجل وبشيء من الانتصار.. فلم تظنّ أن ثورن يهتم بها إلى هذا الحد.. مررت أصابعها بلطف على ذراعه ثم أحاطت بمعصمه بدفء وضغطت على أصابعه هامسة: «أنا آسفة».

رد همساً:

ـ هذه مكافأة مزدوجة.

نظرت إليه بسرعة فأدهشها أن ترى لمسة احمرار تتسلل إلى ما تحت فكيه.. فسحبت نفساً بعمق وحدّة وبعدم ارتياح.. ثمة ما ينبئها ويحذرها بأن ثورن سواذلنغ ليس شخصاً مجهولاً بالنسبة لها.. وأنه ليس الرجل السهل الطباع الذي بدأت تعتاد عليه.. تشك في أنه يمتلك طباعاً قاسية من خلال الطريقة التي يشد فيها أحياناً على فمه، والطريقة التي يشمخ فيها برأسه..

سألها فجأة: «حتام أنت باقية هنا؟»

ـ لست واثقة.

ـ أريد المجيء لتوديعك.

ـ أكره الوداع في المطار.

أملت أن يردعه هذا.. إذ سيصعب عليها افتعال شجار مع دون بوجود ثورن.. ولو ظهر ثورن لاضطرت إلى الادعاء بأنها غيرت رأيها بشأن العودة إلى لندن دونما سبب. ولكن الشجار مع دون، الذي يعرف ثورن أي نوع من الرجال هو، قد يزيل أية شكوك بشأن بقائها هنا.

في الفندق طلب منها أن تتناول العشاء معه في مكان آخر من الجزيرة.. فوافقت:

ـ أحب هذا.. إنما عليك أن تمهلني ساعة أو ساعتين لأستريح، فقد استيقظت في السادسة صباحاً وأرغب في الاستحمام والراحة.

ـ لا بأس في هذا.. كما أن علي رؤية شخص ما على أي حال. أنا آتٍ لاصطحابك في السابعة.. لا ترتدي شيئاً فاخراً.

بعد الاستراحة احتاجت ميرا إلى ساعة لتستعد. استحمت وغسلت شعرها الذي لزمه وقت طويل لاستعادة حيويته الطبيعية.. بعد وضع كريم مرطب للجسم، طلت أظافرها وأظافر قدميها. وانتظرت حتى تجف ثم قررت ارتداء فستان من القطن الأبيض الناعم.

أخذت السيدة توتال تثرثر مع ميرا وهي تستعد، فزوجها على ما يبدو تورط مع فتاة في التاسعة عشرة. قالت ميرا بنفاد صبر:

ـ لمَ لا تطلقينه؟

شحب وجه السيدة توتال: لا أستطيع هذا فقد يثوب إلى رشده يوماً!

ـ ستكونين أفضل حالاً من دونه.. لأنه سيكرر الأمر مجدداً.

ـ لكنني أحبه!

سخرت ميرا: الحب؟ ليس في الكون شيء اسمه الحب!

ـ سأموت بدونه.

إلى أي مدى قد تصل الحماقة؟ وشعرت ميرا بالخجل من بنات جنسها.. فزوج هذه المرأة يمتع نفسه مع فتاة عمرها أقل من نصف عمره، وكل ما تفكر فيه السيدة توتال هو استعادته! هذا كله أبعد من قدرة ميرا

على الفهم.

سألت السيدة تونال:

ـ هل وضبت حقائبك عزيزتي؟ هل نسيت أننا نستقل الطائرة باكراً.

ـ سأوضبها فيما بعد.. فقد يغير دون رأيه.

ـ لا.. لقد كلمته للتو.. لقطات اليوم ممتازة.. رأيت التجربة الأولى منها وهي كل ما سنحتاج إليه.

أخذت ميرا فستانها: عظيم.

أملت ألا يعرف ثورن أنها تعمدت خداعه وإلا واجهت الجحيم! شعرت بالقلق.. أتظن السيدة تونال أنها الوحيدة التي تواجه المشاكل؟ أنها مضطرة للتخلص من ثورن بعد العشاء مباشرة أو في أسرع وقت ممكن.

عندما قال لها ثورن إنه سيصحبها في رحلة بحرية كادت تصيح من الإحباط.. لكنها كانت متأكدة أن من حقها كسب جائزة على ابتسامتها المفعمة بالسعادة.

قال ضاحكاً:

ـ القمر طالع.. ظننت أن هذا سيروق لك.. وستكون الرحلة رومانسية.

تمتمت مخدرة الأحاسيس:

ـ أنت تفكر في كل شيء ثورن.. وما كنت أظن أن لأمثالك من الرجال وجود.

عبس والاهتمام الحقيقي في عينيه:

ـ عليكِ فعلاً التفكير في تغيير مهنتك.. فما تقومين به الآن قد يبدو لك رائعاً، ولكنك عرضة للالتقاء بالنوع غير الصالح من الرجال.

ـ أعتقد أنني على وشك الاستعداد للقبول بنصيحتك.

تنهدت وقالت بأسى:

ـ ليتك كنت موجوداً يوم مات والداي.

ـ كنت مجرد طفلة.

ـ كنت.. في الثامنة عشرة.

ـ يا للطفلة المسكينة! آسف لأنني كنت فظاً معك.. لم أكن أعرف.

كبتت ميرا امتعاضها.. طفلة مسكينة.. حقاً! سرعان ما ستجعله يأكل من يدها.. الرجال متشابهون.. يفاخرون بذكائهم المتفوق، بينما يعتبرون النساء ناقصات العقول..

كان مركب ثورن الذي وصلا إليه بواسطة قارب صغير زورقاً متوسط الحجم، فيه بضع قمرات وهو مجهز على نحو جيد ولكنه كمنزله ليس فيه غير الأشياء الأساسية، والحقيقة أنها كانت تفضل تناول العشاء في الفندق.

سألها بشكل عفوي: «هل سبق أن أبحرت يوماً؟»

ردت مراوغة: «ليس بالضبط».

الإبحار الذي خبرته محصور ببخوت ضخمة هي لأصدقاء أبيها.. كما انضمت إلى أبويها مرة في السنة في جولة بحرية في المتوسط وحول الجزر اليونانية مع مليونير صديق أو آخر، ولا تظن أن ثورن سيتأثر كثيراً بمثل هذا النوع من الإبحار..

قالت بعدم اكتراث: «يمكنني أن أتعلم».

ابتسم: قد أكون سيداً قاسياً.

ارتجفت، ففي كلامه شيء من الإنذار. أجبرت نفسها على الرد بضحكة مماثلة: «وكم لديك من العبيد؟»

قادها إلى الصالون في الأسفل وهو يقول:

ـ ليس لدي أحد في هذه الأيام.

سألت عابسة: «ألن نبحر إلى مكان ما؟»

ـ علينا أن نطهو العشاء.. أعتقد أننا سنبقى حيث نحن.

وهذا ما يناسب ميرا ولكنها لم تقل هذا.. بل مازحته بخفة:

ـ وما هو الطعام الشهي الذي تخطط لطهوه؟

ـ ستيك وسلطة.

صمت قليلاً ثم أخذت عيناه تتجولان عليها، ثم لوح يداً نحو الطباخ قائلاً:

ـ لهذه الأداة الغريبة حدود.. ولكنها تطهو الستيك بشكل لذيذ فعلاً.

نظرت إليه بريبة: وهل تتوقع مني أن أطهو؟

ابتسم بسبب التعبير الذي علا وجهها:

ـ فلنفعل هذا معاً.. في المشاركة مرح.

نظرت إلى فستانها، فعرف ما تعني.

قال يطمئنها: «تبدين جميلة في هذا الفستان.. أعدك أن يبقى أبيض نظيفاً. أتفضلين خلعه أم تريدين المخاطرة؟»

ـ بل أفضل المخاطرة.

ثورن رفيق ممتاز بتصرفاته يدفىء قلبها، ولكن الاسترخاء الذي تشعر به عندما تكون معه هو ما يقلقها.

ـ لو عرفت أنك تخطط لهذا، لحاولت أن أستعير سروالاً من الجينز لأنني لم أجلب معي شيئاً كهذا.

إن كان ثورن مستعداً لوداعها فهذا يعني أنها لم تترك أثراً فعّالاً في نفسه.. وأنها لم تنجز شيئاً.. إذن قد لا يكون لديها سوى بضع ساعات فقط للعمل عليه.

العمل عليه! فجأة كرهت مثل هذا التعبير السوقي.. كما كرهت القدر الغاشم الذي أجبرها على مثل هذا الموقف.. وغصّت بدموعها، دموع المرارة والشفقة على الذات.. ولكن لا جدوى من الشعور بالأسى على نفسها.. ألم تقنع نفسها مراراً وتكراراً أن هذه الشفقة على الذات غير مجدية أبداً؟ ترى هل يكنّ لها شعوراً عميقاً يجعله ينبري إلى دعوتها إلى

جزيرته ما إن يكتشف أنها لم ترجع مع رفاقها إلى انكلترا؟

عليها في الوقت ذاته ألا تفرط في العبث معه لئلا يكتفي منها ويفقد الاهتمام بها.. فلم يحدث أن وصل رجل معها إلى شيء، ولكنها لا ترى نفسها قادرة على قيادة ثورن إلى ذلك المدى. وإذا كانت ذكية في تعاملها، فلن يكون من الضروري المضي أكثر من اللازم.

وجد ثورن لها ميدعة، وقال بنفاد صبر:

ـ ترتب رودا المكان عادة، وعندما يحدث ذلك أحتاج إلى أسابيع حتى أستطيع إيجاد أي شيء مرة أخرى.

انتفضت ميرا: «من.. هي رودا؟»

أقفل الدرج الذي فتش فيه عن الميدعة بقوة:

ـ ألا تذكرينها؟ هي التي طهت لكم الفطور والغداء.

أحست ميرا بالراحة، فضحكت وقالت: «آه.. خادمتك؟»

نفض الميدعة ولفها حولها، ثم تنهد قائلاً:

ـ خصرك غير معقول.. بعد ظهر اليوم فكرت أنه أصغر خصر رأيته في حياتي.. لزمني جهد كبير لأمنع يديّ عنك.. هل تدركين أن أثواب السباحة التي ارتديتها في التصوير كانت مختصرة كثيراً.

فعلت هذه الصراحة أفعالاً غريبة لأنفاس ميرا التي قالت وهي تحاول المراوغة:

ـ قد يهمك أن تعرف أن هذه المايوهات هي لمصمم رائد وأنها تكلف ثروة.

ضحك: أعتقد أن النساء يدفعن ثمن الإغراء لا ثمن القماش؟

ـ لم تكن مضطراً إلى النظر.

وكادت تضيف «وبهذه الشدة» لكنها تراجعت.

لف رأس الميدعة حول عنقها، وقال بخفة:

ـ لكنني استمتعت برؤية جمالك.

رفع كتلة من الشعر ليضع الميدعة، وقال: هل لونه حقيقي؟

ودفن وجهه فيه.

ابتلعت ريقها: «أجل».

أدارها ثورن بحركة رشيقة بدأت تعتاد عليها وسرعان ما أصبحت بين ذراعيه.

لماذا يخفق قلبها وكأن هناك من ضغط على زر خفي فيه؟ أحست بطول جسمه وبقوته.. وهو يضمها إليه.

قالت بحذر خشية أن يتهدج صوتها:

ـ إذا أردت العشاء.. فمن الأفضل أن تتركني أباشر به.

ـ لا أريده.

ـ ثورن!

ـ آه! حسناً.. ربحت.. هذه المرة!

حاولت إخفاء تورد خديها بالتركيز على شي اللحم «الستيك».. لم تكن ذات خبرة بالطهو وحتى في الأيام الأخيرة لم تتعلم إلا القليل ولكن لم يسبق أن طهت طعاماً لغير نفسها.

قالت تسأله:

ـ ألن تحضّر السلطة؟ لكن أولاً سأكون شاكرة إن علمتني كيف يشتغل هذا.

ضحك قبل أن ينحيها جانباً ليعالج طباخ الغاز الذي أشعله بعود من الكبريت.

ـ لا أظنك جرّبت الطبخ في رحلة بحرية.

ردت: لست واثقة إن كان ما تقوله يعجبني!

هز كتفيه:

ـ أنا أستنتج ما يمكن أن يستنتجه أي شخص؟

صاحت: «حسناً.. أنت مخطىء! إذا ظننت..».

قاطعها وهو يحني هامته ليهمس في أذنها:

ـ أظنك أحياناً مجرد طفلة ضالة، مشوشة، رغم مظاهر الأناقة والحذلقة التي تحدق بك.

ارتدت بحدة.. حذرة من الأحاسيس التي انطلقت في داخلها بسبب قربه منها.

قالت: أعتقد أنني أبدو لك هكذا لأنك في هذه السن المتقدمة!

ـ الرابعة والثلاثين؟

عضت شفتها على تسرعها.. إنه في مقتبل العمر ويعرف هذا، ودعكت أذنها بتمرد ولكن ما أدهشها أنها ما تزال ترتعش..

سألت بلهفة وقد نسيت كل شيء عدا فضولها.

ـ ثورن.. ماذا تعمل بالضبط؟

ـ أعمل أقل شيء ممكن.

إذن يرفض أن يستجيب.. عبست ميرا في وجهه بأعصاب متوترة.

ـ لكنك لا تبدو لي كسولاً.

ابتسم: «في مواقف محددة، أنا لست كسولاً.. ألم ألاحقك دون تردد؟»

ضغطت على شفتيها بنفاد صبر، وصممت أن تهزمه في لعبته الخاصة.

ـ تدعي أنك مولع بالنساء.. مع ذلك تعيش بمفردك.

ـ بمحض إرادتي.. لكن هذا لا يعني أنني أحرم نفسي.

تفهم ما يعني هذا! هنا في باربادوس يجد عدد كبير من النساء الوقت لرجل مثله.. أحست بشيء من الغيرة وهذا ما لم تصدقه.. فهذا الشعور جديد عليها بحيث توقفت لحظات تتأمله..

قالت ببرود: «لا جدوى من هذا الحديث».

لزمها بعض الصلصة للستيك، فأخذت تفتش الخزانة بدون أن تطلب

الإذن منه لكنها لم تجد شيئاً.

ـ أريد إعداد صلصة.

رد: تهتم رودا وزوجها عادة بمثل هذه الأشياء.

ـ حسناً، نسيا على ما يبدو هذه المرة.

ـ دعيني أرى.. لقد بدأ اللعاب يسيل من فمي.

أملت ألا يخيب أمله.. كان عندها فكرة غامضة عن مكونات الصلصة ولكنها لا تملك خبرة بها.

ـ هل هذه هي ما تبحثين عنه؟

أخذت العلبة منه، ونظرت إلى الخزانة المليئة بالمؤن، وسألت:

ـ يبدو أن رودا وزوجها يهتمان بك اهتماماً كبيراً.. هل تستخدم المركب دائماً؟

ـ أحياناً أبحر به يوم أو يومين.. ولكنني لا أحتاج إلى نصف ما تحضره لي رودا.. فهي كمعظم النساء، تستمتع بافتعال الاهتمام.

ـ تقصد الاهتمام برجل؟

ابتسم: من اللطف أن يعرف المرء أن لديه من يهتم به.

نظرت إليه بقلق:

ـ أوافقك الرأي.. إنه شعور رائع.

ضحك ثورن وعيناه تمازحانها ثم عقد ذراعه حولها:

ـ تعالي معي إلى سطح المركب حلوتي.. ودعيني أقنعك أنك لست بمفردك في هذا العالم.. اتركي الستيك لحظات.

احتجت مرتجفة:

ـ ماذا؟ وأفسد اللحم؟ الساعة تقارب التاسعة؟

التوى فمه وهو يحاول استنتاج شيء مما قالته.. ثم قال:

ـ ربما أنت على حق.. لمَ نفسد طعاماً جيداً ما دمنا قادرين فيما بعد على الكلام والنظر إلى القمر؟

تبين أن الستيك كان أقل من الممتاز بقليل.. وكم أدهشها تقدير ثورن لها فقالت بريبة:

ـ لكنني لم أعد الصلصة بشكل صحيح.. أعتقد أنني طباخة غير ماهرة.

قطع قطعة لحم محترقة، ثم مضغها:

ـ لا أدري.. لكن طعمها مختلف بالتأكيد.. أنت بحاجة فقط إلى التدريب.

لكنها لا تنوي أبداً تحسين جودة طبخها. قالت:

ـ أنا لا أطبخ كثيراً.

نظر إليها بسرعة:

ـ اشربي المرطبات وابتهجي.. فأنت لا تعرفين أبداً ما قد يأتي به الغد.

سرت قشعريرة ارتباك في أوصالها، فشدت أصابعها حول كوبها.. تكلم ثورن بشكل عفوي لكن الدفء في عينيه نفى أنها عرضة معه إلى أي خطر.

وفيما كانت تجمع الأطباق الفارغة.. قال برقة:

ـ هل سبق أن قلت لك كم تبدين جميلة بهذا الفستان؟ يناسبك اللون كثيراً.. وأنا مسرور لأنك لا تملكين سروالاً من الجينز.

ـ سبق أن قلت لي هذا.

ضحك: «هذا ليس الرد المناسب.. يجب أن تبتسمي وأن ترفرفي هذه الأهداب الطويلة وأن يبدو عليك الغرور لهذا المديح».

مات المرح من عينيه وهو ينظر إلى وجهها:

ـ عندما رأيتك للمرة الأولى قلت بيني وبين نفسي إنك أجمل امرأة رأتها عيناي.. ولم أغير رأيي حتى الآن.

ردت ببطء واللون الأحمر يتسلل إلى بشرتها الشاحبة.

www.elromancia.com

ـ أظنك رأيت عدداً كبيراً من النساء الجميلات، ثورن. ولعلهن رقن لك جميعاً، بالنسبة لبعض الرجال يشبه هذا لوحة نادرة أو أملاكاً، أو عملاً يحبون امتلاكه.

مال إلى الأمام يعانقها:

ـ لست متأكداً مما تحاولين الإشارة إليه، حبيبتي.. لكنني أؤكد لك أنني لا أعتبرك من بين هذه الأشياء التافهة.. أنت إنسانة من لحم ودم.. لذا أنت أكثر إثارة وأعلى قيمة.. والآن، أجاهزة لاحتساء القهوة؟

كانت القهوة التي أعدها سوداء بلا حليب.. اقتادها إلى السطح ليحتسياها. وهناك راحا يراقبان النجوم، والقمر ينير ممراً عريضاً فوق الماء.. إنها ليلة ساحرة.. الهواء دافىء وعابق برائحة البحر التي حركت مشاعرها. أما ثورن فوضع كوبيهما بعيداً وضمها إلى ما بين ذراعيه فقط بدون أن يحاول شيئاً آخر.

سأل وهو يريح ذقنه على رأسها: «سعيدة؟»

تنهدت: أعتقد هذا.

ـ تقصدين نعم ولا؟

ـ فلنترك هذا الموضوع لأنني غير واثقة مما أشعر به.. أنت تجعلني غريبة حتى على نفسي.. فلم يسبق أن شعرت بمثل هذه المشاعر ولا يمكنني الشرح.

لا شك أنها أصابت منه وتراً حساساً. وقال معترفاً:

ـ أتعرفين.. لو كنت فتاة أخرى لما وجدتني أجلس هنا وأبدي الإعجاب بالقمر، خاصة وفي الأسفل مكان مناسب لنا.

همست: «أوه.. ثورن!»

يبدو أنه استجاب إلى رنّة في صوتها، فأدارها إليه ووضع أصابعه تحت ذقنها وقال بصوت أجش:

ـ أنت تتلاعبين بي.

حاولت بشكل غريزي دفعه بعيداً عنها بعدما طغت عليها جميع مخاوفها السابقة كالطوفان.. ولكنه تجاهل يديها المعترضتين المرتجفتين وضمها إليه بحرارة جعلت أحاسيسها تسبح في ذعر متصاعد. أحست أنها انتقلت من أرض التعقل إلى كوكب آخر.. كالمريخ.. بجوه الحار المضطرد بالصعود دونما سيطرة.. لم تشعر براحة أو ما شاكل بل شعرت فقط وكأن في أعماقها مرجلاً يغلي بعواطف متأججة غير معروفة لها، وهذا ما أخافها.. أما ثورن فلم يبدُ راغباً في أن يرحمها.. إذ كان كلما شهقت بخوف يزيد من قسوة ضمها إليه.. ثم شعرت أنها بدأت تذوب.

أخيراً خف ضغطه عليها وخف منها التوتر الذي كان يحميها، وعادت إلى الليونة مجدداً. دعت الله ألا يجدد هجومه عليها.. وضعت أصابع رقيقة على خدها الملتهب، ومع أنها بعيدة عنه، شعرت بجسده ينتفض.

ابتعد قليلاً عنها وعيناه لا تفارقانها:

ـ أظن أن من الأفضل لنا السباحة في البحر..

ـ نسبح؟ كم الساعة الآن؟

ـ الحادية عشرة فقط.

قالت بإصرار: «إنه وقت متأخر.. والحقيقة أن الأفضل هو تنظيف المطبخ ثم العودة مباشرة إلى الفندق.. أتوقع أن يستدعوني باكراً».

ـ إنسي أمر المطبخ.. فستهتم رودا به.

لم تكن مهتمة بغير العودة إلى الفندق بأسرع وقت ممكن.. فقد عرفت بدون أدنى شك أن ثورن منجذب إليها.. وهذا يعني أنه سيشعر بالسرور ما إن يكتشف بقاءها في الفندق بعد رحيل الآخرين.

بعد الاستيقاظ باكراً نهضت ميرا من السرير وبدأت بتوضيب حقائبها.. قُدمت لها القهوة في غرفتها ولكنهم سيتناولون الفطور على متن الطائرة.. في الطريق إلى المطار، لم يتكلم أحد منهم كثيراً.. كان صباحاً جميلاً يناسب المرح لا العمل.. ما أروع الذهاب إلى السباحة ثم

الاستلقاء في الشمس.. ولكن ما إن تصل إلى لندن حتى تنسى أمر باربادوس.

تنفست ميرا الصعداء عندما لم تجد ثورن في المطار.. فالتوقيت مهم. وكانت مذعورة من ارتكاب أي خطأ ولكنها تساءلت لماذا تخلى عنها معظم ما لديها من ثقة بالنفس. انتظرت حتى أصبح الجميع جاهزاً لصعود الطائرة، وأعلنت فجأة:

ـ لن أعود معكم.. قررت أن آخذ عطلة بضعة أسابيع.

صاح دون: لا تكوني حمقاء لعينة هكذا! ما أكثر ما تتذمرين من الإفلاس! فهل تدركين كم ستكلف الإقامة هنا؟

ردت بتعالٍ: «سأتدبر أمري».

سحب دون نفساً عميقاً:

ـ لقد فقدت عقلك الصغير!

نظرت إليه نظرة جميلة:

ـ لا شأن لك بما في عقلي اللعين!

قاطعتهما السيدة توتال بسرعة:

ـ ميرا.. أواثقة مما ستقدمين عليه؟ يجب أن تدركي أن الوكالة لن تكون راضية إن لم ترجعي معنا، واعلمي أنهم لا يملكون صبراً لا نهاية له.

أما ماين ونولين فتقبلتا قرارها بالبقاء بدون اعتراض إذ هزتا أكتافهما وقالتا لها: «إلى اللقاء»، ثم تحركتا إلى الطائرة.

تمتم دون ساخطاً:

ـ ما الفائدة! إذا كنت عاقدة النية، فلماذا أهتم؟

قالت السيدة توتال بلهفة:

ـ ميرا! هل سمعت ما قلته لك؟

ابتسمت ميرا لها: أجل ولكنني لن أتبع نصيحتك.

بعد تردد طويل تنهدت السيدة ولحقت بالفتاتين، أما تعابير وجه دون

فتغيرت وأمسك بذراعها: «ميرا».

قاطعته بثبات قبل أن يبدأ بالتوسّل:

ـ لا! لا فائدة من قولٍ المزيد دون.. لقد عزمت وتوكلت.

ترك ذراعها بشكل فظ:

ـ افعلي ما يحلو لك.. أتظنين أنني لا أعرف ماذا يجري؟ لكن عندما يملّ منك ثورن سواذلنغ فلا تهرعي إليّ راكضة.. فقد نصحتك وقلت لك إنه يختلف عمن خبرته سابقاً.. ومع ذلك لم تصغي.. لكن صدقيني، يا ميرا الذكية جداً، والساذجة جداً.. أن أمامك صدمة عمرك!

بعد رحيل الطائرة اضطرت ميرا إلى الحصول على فنجان قهوة حتى قدرت على التفتيش عن سيارة أجرة تقلّها إلى الفندق، فقد صدمتها كلمات دون وتركت في حلقها طعماً كريهاً.

قبل أن تغادر المطار اتبعت نصيحة تالبوت سمولود.. فاتصلت بالفندق وعرّفت عن نفسها وعن قرارها بالمكوث عندهم بضعة أيام أخرى، ثم سألت ما إذا كانت الغرفة ذاتها متوفرة. وعندما سمعت الرد الإيجابي تنفست الصعداء.. فإن لم يكن الفندق قادراً على استقبالها، فقد يقودها هذا إلى تعقيدات أخرى كإضاعة الوقت بالبحث عن فندق آخر قريب منه.. وعندئذ قد يفقد ثورن أثرها.

***

٤ ـ في ضيافة الشيطان

كان أول ما قامت به ميرا بعد العودة إلى الفندق الاستحمام والإيواء إلى فراشها لتنام بضع ساعات.. وعندما استيقظت كان الوقت ظهراً، فارتدت ملابسها بعناية وتوجهت إلى مطعم الفندق للغداء.. وفكرت بثورن قلقة..

كانت تهمّ بمغادرة غرفتها عندما رن جرس الهاتف.. ولأنها ظنت أن المتكلم هو مكتب الاستقبال رفعت السماعة بنفاد صبر ولكنها سمعت تالبوت سمولود يصيح غاضباً:

ـ ترقبت طوال الصباح اتصالاً منك ثم اضطررت إلى الاتصال بك وهو أمر لم أكن أريده ولكنه ضروري لأعرف ماذا يجري.

تذكرت ميرا أنها وعدت بالاتصال به بعد رحيل الآخرين.. ولكن على تالبوت ألا يتوقع منها تعارفاً مطلقاً بين يوم وليلة!

قالت ببرود: «سار كل شيء بحسب الخطة».

تمتم بغضب: «كوني حذرة! ألم أحذرك من التلفظ بمثل هذه الملاحظات عبر الهاتف؟»

إنه يحمل كل أمر على محمل الجد.. وهو على عكسها تماماً.. أو على الأقل لم تتمكن حتى الآن من حمل الأمر على محمل الجد.. فجأة تلاشت شجاعتها وابتلعت ريقها بصعوبة.. كان خداع ثورن سواذلنغ حتى الآن مجرد فكرة تتلاعب بها.. أما الآن وقد حان وقت التنفيذ فلم تعد تجد

الأمر مسلياً أبداً.

سألت وهي تحاول وضع كلماتها بدقة:

ـ كيف أتصل بك.. إن لم أكن هنا؟

ـ لا تتصلي إلا إذا كان ذلك ضرورياً.. لا نريد سماع شيء قبل أن تحصلي على الخبر اليقين.. وبعد ذلك اتركي لنا كل شيء.

ردت بجفاء: «سأبذل جهدي».

ران صمت قصير، ثم تمتم تالبوت برقة:

ـ لا تخافي! لست بمفردك عزيزتي.. سنفكر فيك دوماً. واثق أنك لن تقلقي عليّ.

أحست ميرا بغضب شديد وهي تقفل باب غرفتها وتدخل إلى المصعد.. هل الذنب ذنبها لأنها اضطرت إلى التعامل مع زواحف أمثال تالبوت وبرايس سمولود؟ لو أظهر والداها تفهماً لمستقبلها، لما تعرضت إلى مثل هذا الموقف.. كما أن الغلطة غلطة بيري، ألم يتخلّى عنها وكأنها قطعة أثاث رخيصة فقد إعجابه بها؟.. لا.. إذا كانت تريد العيش في المستوى الذي اعتادت عليه فلا بد من تنفيذ ما هي مقدمة عليه.

وصل ثورن قبل العشاء مباشرة وكانت ميرا قد خالته لن يأتي.. في هذا المساء ارتدى سترة سوداء فغرّد قلبها بحركات صغيرة غريبة وهي تراه يقترب منها.. لاحظت أن بزته الرسمية لم تخفِ قوة جسده..

صاحت بصوت ملؤه الراحة:

ـ ثورن! ما أسعدني لرؤيتك!

رد ابتسامتها وفرقع بأصابعه يستدعي الساقي:

ـ مساء الخير ميرا.. أراك ما زلت ملتزمة بتناول عصير البرتقال.

طلب لنفسه كوب مرطبات وقال:

ـ هل أطلب شيئاً للآخرين؟ ألم ينزلوا؟

ردت مترددة: «رحلوا».

قطب جبينه: «إلى أين؟»

ـ إلى الوطن..

بدا واضحاً أنه أجفل.. تناول شرابه من الساقي ولكن ما إن رآه يبتعد حتى سألها:

ـ مهلك لحظة.. أريد أن أفهم ما تقولين.. عاد زملاؤك إلى لندن وتركوك هنا بمفردك؟

هزت رأسها إيجاباً، فسأل بعجب:

ـ وكيف حصل هذا؟

شدت يديها معاً: ليس الأمر كما تقول بالضبط.. فأنا.. حسناً من الأفضل أن أخبرك.. تشاجرت مع دون في المطار فشعرت بأنني غير قادرة على الجلوس في مكان واحد معه، فكان أن قررت العودة إلى هنا للبقاء بضعة أيام.

رد بصوت عميق متشدد:

ـ لماذا لم تخبريني أنكم مسافرون؟ لقد وعدتني بهذا.

قالت كاذبة: «لأنني لم أكن أعلم.. نعم لا أنكر أن السيدة تونال أخبرتني ولكنها لم تخبرني بالأمر إلا هذا الصباح.. أردت أن أخبرك، ولكنني عدت فعدلت عن رأيي فأنا لا أعرفك معرفة تخوّلني إرسال رسالة عاجلة إليك.. نويت أن أراسلك من لندن».

ـ وماذا كنت ستكتبين؟ أنك وصلت بالسلامة.. وأنك سررت بالتعرف إلي؟

أخافتها السخرية المشبعة في صوته:

ـ ثورن.. يجب ألا تتذمر، فبسببك أنت وجدت الشجاعة التي دفعتني للتخلي عن دون الذي أصبح شريراً معي بسببك.. بعد رحيل الطائرة، أدركت أنني كنت سأرحل معه لولا معرفتي بأنك هنا لألجأ إليك.

رحل شيء من غضبه السريع ثم راح يرتشف عصيره:

ـ حسناً.. سيوفّر هذا عليّ رحلة إلى انكلترا.

صدمها رده فحاولت إخفاء صدمتها بأن رشفت عصير البرتقال. أهو يلقي كلماته جزافاً؟ ولكنها بطريقة ما لا تظن هذا.. تركت شيئاً من القلق يبدو في عينيها وابتسمت له:

ـ سأعلمك بموعد رحيلي في المرة القادمة.

لم يرد بل التقت عيناه بعينيها فتبادلا النظرات حتى شعرت بالتوتر.

ـ هل يمكنك تحمل الإقامة في مكان كهذا ميرا؟ أعرف أن المرء يتخذ قرارات متهورة ساعة الغضب.

ـ لست متهورة ولست مفلسة إلى هذا الحد، حجزت غرفة مدة أسبوع وقد سددت الحساب مقدماً. ولكن هذا يعني تبديد كل مدخراتي.

ظلّ يراقبها عن كثب، وكأنما من المهم أن يستمع إلى كل كلمة تقولها.. قال:

ـ أستطيع عرض مساعدتك.. أعرف أن كبرياءك لن تسمح لك.. لكن ما أستطيع أن أفعله هو أن أدعوك للإقامة عندي على الجزيرة.. سبق أن دعوتك، أتذكرين؟

وهل يمكنها أن تنسى؟

ردت ببطء: «عندما لم تذكر الدعوة مرة أخرى ظننتك غير جاد..».

ـ لم أذكرها مرة أخرى لأنني لم أرد أن تشعري أنني أدفعك.. تصورت أنك ستفهمين ذلك من خلال الاهتمام الذي أوليه لك.

تظاهرت بالخجل بشكل فاتن: آه! ثورن!

ـ ما رأيك إذن؟ أتقبلين أن تكوني ضيفتي؟

ترددت عن عمد وعبست قليلاً:

ـ لست متأكدة أن الجزيرة تناسبني..

قاطعها: لماذا لا تحاولين استكشاف الأمر؟ لأنني واثق أنك ستتمتعين بالتجربة. وإن شعرت بالوحدة فسنجد حلاً، وليس عليك أن

تقلقي لأن رودا ستعتني بك . . إنها امرأة متزمتة وهي قادرة على إيقافي عند حدي .

أصرت بشدة : «ليس الأمر كما تقول . . أنت تحسن التصرف معي وأنا أقدّر لك هذا . . لكن هلا أمهلتني بعض الوقت لأفكر في الأمر؟»

أحست أن أمله خاب ، لكنه وافق فوراً :

ـ لك ما تريدين من وقت . . على الأقل إلى ما بعد العشاء .

ابتسم بفتنة .

قالت ممازحة : متسلط ! لم أعرف أنك باقٍ إلى ما بعد العشاء .

رد ساخراً : «حاولي التخلص مني !»

لم تشعر برغبة في الطعام فأحداث اليوم أضنت جسدها وتفكيرها في آن واحد . . أخيراً تخلت عن محاولة تناول الطعام ونحّت طبقها جانباً .

ـ لست جائعة؟

تنهدت : «هذا واضح» .

مد يده يغطي يدها التي كانت تضعها على المائدة .

ـ أتعرفين؟ ليتني كنت في المطار هذا الصباح ، وكم كنت سأسر وأنا ألكمه حتى تقع أسنانه . عم كان شجاركما . . على فكرة؟ لم تخبريني !

اضطرب عقل ميرا المتشتت لأنها لم تظنه سيسألها . . ردت على مضض :

ـ أفضل عدم التكلم عن الأمر . . لم يكن شيئاً مهماً . من حديث إلى حديث وقع الشجار . وعندما رفضت ركوب الطائرة معه اتهمني أنني أريد البقاء عمداً من أجل رؤيتك فشرع يهددني .

ـ إنه يحبك .

هزت ميرا رأسها ساخرة :

ـ لا . . دون لا يقع في الحب . . لديه علاقات غرامية عديدة ولكنه يكره الالتزام .

التوى فم ثورن بابتسامة مرح :

ـ هو كمعظم الرجال . . يكره أن تقول له امرأة «لا» .

ـ سرعان ما سينسى . .

ـ وهل أنت مضطرة للعمل معه؟

ـ ليس كثيراً .

وهما يهمان بترك المطعم اقترح ثورن مشاهدة العرض في القاعة الرئيسية :

ـ قد يساعدك هذا على الاسترخاء . . سمعت أن صوت المغنية رائع .

قالت ممازحة :

ـ لديك معلومات وثيقة! مع أنك لا تسكن هنا؟

ابتسم ثورن : «مدير الفندق ابن عمي . . أعتقد أنه يخشى أن أموت من الوحدة على جزيرتي ، لذا يفكر دوماً في إعادتي إلى المدينة» .

إذن هو يعرف المدير !

ـ ألا يؤمن بقدرتك على العناية بمصالحك؟

ضحك : «إنه ممن لا يستسلمون بسهولة» .

نظرت إليه وعيناها تبرقان ، أليس عليها أن تفتنه؟

ـ إنه لا شك مشروع عائلي .

برقت أسنانه البيضاء ولكن قبل أن يرد ، ألقت عليه امرأة تحية وكانا في هذه اللحظة يمران بالبهو .

ـ ثورن . . حبيبي !

عندما التفتت ميرا رأت امرأة رائعة الجمال تهرع إليهما . . وما إن وصلت حتى رمت ذراعيها حول عنق ثورن وعانقته بشغف .

ـ أملت أن أجدك هنا هذا المساء ، حبيبي . لقد اشتقت لك .

ابتسم : حقاً؟

راقبت ميرا العناق ، وتساءلت أين ذهبت برودتها . . والغريب أنها

شعرت برغبة في تمزيق ثورن وفي مهاجمة هذه المرأة المتعلقة به.. لم تشعر قط بشيء من هذا تجاه بيري رغم عبثه مع نساء أخريات.

حرّر ثورن نفسه ولكنه ظل ممسكاً بيد المرأة التي قدمها إلى ميرا.. تعرفت الفتاتان إلى بعضهما بعضاً، وحدقت كارمن بريغز إلى ميرا ببرود ثم تجاهلتها، ووجهت كلامها إلى ثورن:

ـ إذا كنت تريد مشاهدة العرض حبيبي، فهل تمانع إن انضممت إليك؟ فأصدقائي غير مهتمين بالعرض.

رد بلباقة: «بل يسرّنا ذلك».

غضبت ميرا لأنه لم يستشرها.. كارمن امرأة جريئة قادرة على التطفل ولكنه بلا شك قادر أيضاً على الرفض. ولكن أتراه لا يريد قول لا؟

تجاوزت كارمن بريغز الثلاثين من عمرها والواضح أنها متحررة في أفكارها تعرف ماذا تريد.. وهي تريد ثورن.. لكن هل سبق أن كان ثورن على علاقة معها؟

ذكرت ميرا نفسها أنها لا تمتلكه، لذا قد لا يكون من السيء أن تنضم إليهما كارمن.. فوجودها معهما سيمنحها الوقت حتى تقرر إن كانت موافقة على مرافقته إلى الجزيرة إذ عنّ على بالها أنها تستطيع العمل بأمان هنا في الفندق وهذا ما ستفتقر إليه في جزيرته.

تساءلت كثيراً عن كارمن وثورن ثم أدركت أنها تهمل مشاكل أهم بكثير.

أجفلها صوت ثورن، وأخرجها من أفكارها:

ـ أتستمتعين بالسهرة؟

ابتلعت ريقها، ونظرت إلى المغنية المتألقة: أجل.

نظر إليها متفرساً:

ـ الاستعراض رائع.. ولكنه لا يجذب اهتمامك على ما يبدو..

صبّ اهتمامه من جديد على العرض.. توصلت ميرا إلى استنتاج

سريع.. إنه لمن المغري لها البقاء في الفندق.. ولكن إن لم تذهب إلى الجزيرة، فشلت في مهمتها، فقد يتهمها الأخوان سمولود بالتلكؤ وعدم بذل الجهد وقد يسحبون أي تعويض، أما لو ذهبت إلى جزيرة ثورن فلن يقدروا على اتهامها بشيء كهذا عند الفشل.. فكان أن قررت قضاء الليلة في الفندق على أن تذهب إلى الجزيرة في الصباح.

أبلغته قرارها بعد انتهاء العرض وبعد مغادرة كارمن التي لم تعد قادرة على التذرع بأية حجة لإهمال أصدقائها أكثر من هذا.. ولم يقدم ثورن أي تفسير ولكنه لم يقل لها شيئاً قبل هذا المساء عن ابن عمه، مدير الفندق.. لا شك أن رجلاً مثله على معرفة بعدد كبير من النساء، لذا لا جدوى من القلق حيال هذا الأمر.

لم يصر ثورن على أن ترافقه فوراً بل ابتسم وقال:

ـ سأصطحبك في العاشرة.. اتركي أمر إلغاء حجز غرفتك عليّ.

اكتشفت ميرا أن عليها الاستيقاظ في التاسعة لتكون جاهزة في تمام العاشرة.. فعليها توضيب ملابسها والاستحمام وارتداء الملابس..

ما إن فتح البوتيك أبوابه حتى اشترت سروالين خفيفين من القطن السهل الغسيل. قاومت شراء أي شيء آخر باستثناء ثوب أسود ضيق اعتبرته حاجة ضرورية لتراقب وزنها.

بعد ذلك زارت مكتبة الفندق واشترت عدة قصص لمؤلفيها المفضلين.. إنها تحب القراءة كثيراً.. وقد فكرت مرة في الكتابة.

وصل ثورن وهي تتناول الفطور فسألها:

ـ أتبقى شيء من القهوة؟

ـ بالتأكيد.

حمل إليه أحد السقاة فنجاناً.. دفعت ميرا له إبريق القهوة.. فقال ساخراً وهو يصبها:

ـ أما زلت تشعرين بالكسل هذا الصباح؟

ـ همم . .

دهنت قطعة «كرواسان» بالزبدة بعناية لتبقي عينيها بعيدتين عنه .

قال لها : لقد كلمت برنت عن غرفتك فقال لي إنها ستبقى محجوزة باسمك ، حتى إذا مللت من الجزيرة عدت إليها متى شئت .

رأت ميرا ابن عمه برنت كرونويل وهما يهمّان بالمغادرة . . وقد سبق لميرا أن رأته عدة مرات . . لم يبدُ لها معادياً مثل ثورن . . وكانت ممتنة عندما رأت الإعجاب في عينيه .

قال مبتسماً : «علمت أنك ستزورين جزيرة الشيطان!»

شهقت : «ماذا قلت؟»

نظر ثورن إلى ابن عمه بسخط ، أما وجه ميرا فشحب .

تنهد ثورن : هذه نكتة من برنت . . حدث مرة واحدة أن هبت ريح عاصفة لكنها كانت غلطته . . فقد كان الطقس ينذر بالشر .

ضحك برنت : أقسم أن ثورن هو من يثير ذلك الطقس عن قصد ليتخلص مني . . فهو لا يحب أن يكدر الناس هدوءه . . وأظنك تفهمين السبب آنسة لاوتون .

قاطعه ثورن : نادها ميرا . . يجب أن نذهب حقاً برنت .

نظر إليه ابن عمه مفكراً ولكنه لم يعترض بل مد يده مودعاً :

ـ وداعاً إذن ميرا . أتوقع أن يأتي ثورن برفقتك لتناول العشاء في أمسية ما .

هذا الصباح ، كان مركب ثورن راسياً قرب الفندق . . . عندما أبحرا وجدا الشمس دافئة فرحبت ميرا بها لأنها كانت تحس بالبرد الذي صدمها حين أشار برنت إلى منزل ثورن باسم «جزيرة الشيطان» . . فلم تدر لماذا تشعر بأن رحلتها قد تتحول بكل سهولة إلى كارثة!

وكأنما قرأ أفكارها فأراد تحويل مسارها إلى شيء آخر .

ـ لم تري شيئاً من باربادوس حتى الآن . . ربما ما كان يجب أن أبعدك

عنها بسرعة .

قالت بعدم اهتمام :

ـ سبق أن زرتها . . يومذاك كنت طفلة . . أقمنا في الهيلتون أو في مكان مشابه .

رد ثورن بصوت فظ :

ـ كان والداك على ما يبدو يحبان الأفضل .

ـ كانا يفضلان جامايكا . . قد سافرا كثيراً لذا باتت كل الجزر متشابهة عندي .

ـ لكنك الآن أكبر سناً .

رفعت وجهها إلى الريح وفهمت قصده :

ـ أجل . . أعتقد أنني أستطيع إلقاء نظرة أخرى على باربادوس حين أعود .

ضحك : «لماذا لا أرافقك؟»

شدها فجأة يحتضنها تحت ذراعه .

ـ يعجبني سروالك . . ألم تقولي إنك لا تملكين واحداً؟

ـ هذا صحيح . . ولكنني اشتريته من بوتيك الفندق هذا الصباح ، لذا لا داعي إلى معاقبتي ظناً أنني أخدعك .

ضحك :

ـ أعتذر ، لم أقصد إيلامك . . أو جرح مشاعرك .

ضحكت ميرا لأنه أظهر نفسه بمظهر المتألم . . الضحك معه يصبح شيئاً فشيئاً إدماناً . . لذا عليها أن تحذر ، ففي مثل هذه اللحظات لا تشعر بأنها تكرهه .

عرضت عليه صنع القهوة فقبل ثورن ضاحكاً :

ـ أظنك ستكونين ذات فائدة . . وأظن أني سأرافقك في رحلة بحرية لبضعة أيام . . سأقوم أنا بصيد السمك . . أما أنت فستقومين بالعمل .

ردت بصوت جاف:

ـ ما أنت بحاجة إليه هو عبدة مطبخ.

نزلت إلى المطبخ على أمل أن ينسى أمر رحلة الصيد فقد بدأ يخيفها اتجاه الموقف الذي زجّت نفسها فيه. فالعيش معه على جزيرة سيكون صعباً بما فيه الكفاية..

كان هاري زوج رودا بالانتظار حين وصلا إلى «كوريسا» وهو الاسم الحقيقي للجزيرة وقد ذكره لها وهما يتناولان القهوة.. وعندما سألته إن سماها على اسم صديقته أنكر ذلك وقال إن هذا كان اسمها حين اشتراها وإنه سيخبرها عن قصة شرائها في يوم ما.

حمل هاري متاع ميرا إلى المنزل أما ثورن فحمل بعض المؤن التي سبق أن طلبتها منه رودا.

قالت ميرا:

ـ لا أريد أن أسبب إزعاجاً لخدمك.

ابتسم:

ـ ادعيهما هاري ورودا.. فنحن لا نتبادل الأسماء بشكل رسمي.. أنا واثق أنك ستكونين ضيفة ممتازة.

لكنها أملت ألا يتوقع ثورن منها مصادقة رودا.. فهي إضافة إلى كل شيء، المخادعة في هذه القصة.. أليس كذلك؟

كانت غرفة النوم التي صحبها إليها ثورن واسعة ولكنها كسائر أرجاء المنزل مفروشة بأثاث متقشف، فعدا السرير هناك خزانة وخزانة أدراج على ظهرها مرآة.. الفراش واسع، لكنه بدا قاسياً وليس قربه غير بساط صغير.. أما الأرض فكانت خالية من أي شيء آخر.

عبست وقالت:

ـ ألا تلتقط الأرض الغبار؟

ـ تنظفها رودا يومياً.. أما السجاد فلا يناسب الجو الحار.

أدارت وجهها إلى ثورن الذي ملأ جسمه الباب الذي استند إليه بتكاسل..

قال وهو يدنو منها:

ـ أريد منك أن تتصرفي وكأنك في بيتك.. وإن لم تعجبك الغرفة فاطلبي لأغيّرها لك.

ـ إنها مناسبة.. شكراً لك.

ـ غرفتي في آخر الرواق..

عبست وشعرت بالقلق لا إرادياً.. فمد يده يجذبها إليه.. عندئذ صاح بها تفكيرها محتجاً بسبب قربه.. لماذا يريد دائماً الإمساك بها؟ ولماذا لا يقوى على إبعاد يديه عنها؟

لثم بحنان جبينها، ثم ضمها في عناق آسر كان مدمراً أكثر من الشوق الذي أبداه هذا الصباح فوق البخت.. دست ميرا ذراعيها حول خصره، تشده إليها بقوة.. بدا أن جسمها النحيل يتناسب مع طوله.. فقمة رأسها الحريري الشعر تصل إلى كتفيه.. ثم تنهدت بلطف، وسرعان ما شعرت به يرتجف:

ـ يا إلهي ميرا.. ما أجملك!

ثم عانقها بشغف وقوة.. فجأة تساءلت ما الذي تفعله بحق الله؟ كيف تستجيب له بهذا العنف؟ برّد الخوف وجهها.. ولكن عندما رأته ينظر إليها بعينين ضيقتين، ابتسمت متمتمة:

ـ الوقت باكر على هذا.

وكأنما تحاول شرح سبب ابتعادها عنه.

التوى فمه بتسلية فورية:

ـ لن يكون الوقت باكراً أبداً بالنسبة لي.

ابتلعت ريقها وشعرت بأنها غير قادرة على الرد في الاتجاه ذاته..

سألت متلعثمة:

ـ هل . . ينام هاري وروردا في المنزل؟

تنهد: أوه ميرا . . أنت شفافة! كان يجب أن تعرفي أن عليك ألا تخافي مني لأنني لن ألمسك إلا برضاك . . على أي حال لم نصل إلى هذا الحد . . أما روردا وهاري فجناحهما في مؤخرة المنزل . . ولكن ثقي أنك لن تحتاجي إلى حمايتهما .

ـ أظنني سأستريح قبل الغداء . . هلاّ أرسلت روردا لتفرغ ثيابي!

نظر إليها بحدة ثم قال:

ـ أجل . . أتوقع أن تكوني متعبة .

وصلت روردا إلى غرفتها وهي تستريح بعد الحمام . . راحت روردا تتحدث ولكن ميرا لم تكلمها إلا قليلاً فكان أن نظرت نظرة حيرة إلى الفتاة الممددة في السرير وعادت إلى المطبخ لتحضر الغداء .

أمضت ميرا ما تبقى من النهار متكاسلة تقرأ . وعندما جاء ثورن ليحاول إقناعها بمرافقته للقيام بنزهة سيراً على الأقدام تثاءبت وادعت أنها تعاني من صداع تريد أن يزول قبل العشاء .

عبس قائلاً: ما زال أمامنا ساعات قبل موعد العشاء وأظن أن النزهة قد تزيل صداعك وتفتح شهيتك إلى الطعام .

ردت بعناد: أنا بغنى عن الشهية .

ظلت تستعد للعشاء مدة ساعتين، لكن ما إن وصلت إلى غرفة الجلوس حتى خاب أملها، فبعد العناء الذي مرت به للاهتمام بمظهرها وجدت أن ثورن لم يفعل شيئاً سوى ارتداء بنطلون وقميص نظيفين .

راقب جمالها الذهبي الأحمر المتألق وسروالها الواسع الغالي الثمن، وبلوزتها ثم قال معلقاً:

ـ تجعلينني أشعر بالخجل .

ابتسمت له برشاقة وتركته يعانقها . . ولكنه لمّا أطال العناق ذكرته بحدة بمكياجها قائلة:

ـ ألديك فكرة عن الوقت الذي استلزمني لأتمه بما يليق؟ . . لا أريد أن يلطخ الماكياج قميصك .

تمتم متجاهلاً نظرتها المذعورة:

ـ تعجبيني أكثر بدونه .

كان العشاء الذي قدمته روردا لذيذاً . . فقالت ميرا إن روردا طباخة ممتازة . . ولكنها لم ترَ ما يدعو ثورن إلى تهنئتها بمثل هذه الحرارة . . على أي حال هذه مهنة الخدم . . وهم يتلقون بدلاً عن أتعابهم ليكونوا أكفاء .

عندما أدخلت المرأة القهوة قالت ببرود:

ـ هلا أعددت لي الحمام في العاشرة . .

والتفتت إلى ثورن: أعتقد أنني سأنام باكراً .

ما إن غادرت روردا حتى أحست ببرود يلف الجو، فأدركت أنها ارتكبت غلطة ما . . كان الجو متوتراً بسبب امتعاض ثورن . . أوه . . يا إلهي . . ! تأوهت بينها وبين نفسها بسبب غبائها فقد فهمت غلطتها . . ألا تقوى على القيام بعمل صائب أبداً؟ أمحكوم على حياتها بالفوضى الدائمة؟ في الساعات الأخيرة الماضية، عاشت في أرض الأحلام وادعت أن الأيام الخوالي عادت . كان ثورن على حق عندما قال لها إنها مشوشة! كم مرة سخرت من أمها لاعتمادها على الخدم، وهل تستطيع لوم ثورن على سخطه؟ لا شك أن المرأة العطوف هي مربيته، أو شيء ما . . أما هي فمجرد فتاة التقاها منذ بضعة أيام . . غضبت من نفسها لأنها قد تكون بكل سهولة أفسدت كل عملها الشاق الذي تحملته في الأسبوع الأخير . . لقد تمكنت وتعلمت كيف تتحمل عناقه . .

اختلست نظرة إلى وجهه الكالح، ولكنها قررت عدم الاعتذار فوراً . . فمن الأفضل الانتظار حتى الغد لمنحه الفرصة حتى يبرد غضبه . . كما عليها الاعتذار لروردا . يجب بطريقة ما أن تقنع ثورن أنها ليست المخلوقة

المدللة التي يظنها. . رفضت الاستماع إلى الشكوك التي كانت تطوف برأسها ولكن إن أساء الظن بها فهو على حق. . عليها في الصباح بذل الجهد لتقنعه بأنها كانت متعبة ومرهقة وأنها ما تزال متوترة بسبب شجارها مع دون دورسيت. وإذا تمكنت من الاعتذار بتواضع فسيسامحها، ثم يعود كل شيء إلى مجاريه مرة أخرى.

* * *

٥ ـ خطر من نوع آخر

حين استيقظت ميرا في الصباح التالي اكتشفت أنها بالغت بالنوم. . وهذا من سوء حظها لأنها أرادت الاستيقاظ مع بزوغ الفجر لتترك عنده انطباعاً جيداً. . ولكنها تشك أن يكون معتاداً على الاستيقاظ الباكر. ألم يقل هذا؟ تأوهت وهي تنهض من الفراش الذي كان قاسياً. . فبالأمس احتاجت إلى وقت طويل حتى غفت. . وأملت أن يقدر لها الأخوان سمولود الإزعاج الذي تعانيه في سبيل اكتساب المال الذي سيدفعانه لها.

بعد الاغتسال، ارتدت سروالاً وقميصاً حريرياً وتوجهت إلى المطبخ تريد الفطور. . لم تجد ثورن هناك ولكنها وجدت رودا.

سألتها رودا بأدب:

ـ أتريدين تناول الفطور آنسة لاوتون؟

أجبرت ميرا تعبير لهفة على وجهها وهي ترد:

ـ شكراً لك رودا. . اسمي ميرا! آسفة لأنني أزعجتك بالأمس رودا. . أعرف أن لديك عملاً كثيراً هو أهم من الاعتناء بي. . ولكنني أمضيت أسبوعاً عصيباً. . وبالأمس لم أكن أنا نفسي.

بدا الدفء في عيني رودا البنيتين الداكنتين:

ـ لا تفكري في الأمر آنسة ميرا. .

ـ أنا آسفة حقاً.

ثم عرضت برقة:

www.elromancia.com

ـ إذا كان هناك فعلاً ما أستطيع المساعدة به رودا، فما عليك سوى أن تطلبي ذلك مني.. هل تناول ثورن الفطور؟

ـ أجل منذ ساعات.. وبما أنني أعرفه جيداً فأظنه سيأتي في وقت قريب ليتناول القهوة.

ما كادت ميرا تنهي فطورها حتى ظهر ثورن:

ـ مرحباً.. كيف حالك هذا الصباح؟

بدا لها ودوداً ولكنها رأت أن عينيه ما زالتا قلقتين..

ـ أنا أفضل حالاً.. شكراً لك.. لقد تلاشى مزاجي السوداوي على ما يبدو.

توقف وارتدّ إليها: «آه..».

أمسك بها يوقفها.. ليلة أمس تركها بعد العشاء مباشرة ليرد على بعض الرسائل في مكتبته. عرفت أنها نالت فرصة أخرى وأن عليها الاستفادة منها.

قال يحذرها:

ـ.. يوم أمس بدوت مختلفة..

ابتلعت ريقها بشكل يثير الشفقة:

ـ بالأمس كانت الأمور عصبية عليّ.. وكدت أطلب منك نقلي إلى الجزيرة الرئيسية لأعود إلى بلادي.. لا أدري لماذا شعرت بأنني محطمة.

لثم جبينها برقة:

ـ أوه.. يا حبيبتي! نستجيب جميعاً للضغط العصبي بشكل مختلف.. كان عليّ أن أتفهم وضعك.. لكن بسبب عجرفتي تساءلت عما إذا أخطأت في تقديري لك.

اغرورقت عيناها بالدموع.. دموع أجفلتها لأنها لم تحاول ابتداعها.. ثم شعرت ويا للغرابة، برغبة في دفن وجهها في صدر ثورن العريض لتذرف الدمع ولتنفث عن أشهر من البؤس المتراكم. استجمعت

شتات نفسها.. ولكن لم البؤس وليس في حياتها أي خطب؟ ثورن غير غاضب وهي ترفض النظر إلى ما هو أبعد من الحاضر.

ابتسمت له من بين دموعها، فبدت صغيرة ضعيفة..

همست: أنا آسفة.. لم أقصد أن أبكي على صدرك.

تمتم بصوت أجش: هذه هي فتاتي.. فلننس الأمس.. إنه يوم جميل، فلماذا لا نسبح في البحر؟

ـ آه! إنه اقتراح رائع!

شعرت بأنها ستقفز من فوق جرف صخري مرتفع إن طلب منها هذا.

ـ هيا ارتدي ما هو مناسب، وفي هذه الأثناء سأشرب قهوتي..

هرعت إلى غرفتها ثم عادت بعدما ارتدت ثوب سباحة من قطعة واحدة، شرعت بجمع الأطباق ووضعتها على صينية فسألها ثورن بحدة عما تفعل.

وبّخته مبتسمة:

ـ أحاول مساعدة رودا التي صببت عليها غضبي بالأمس.. وأريد أن أعوضها عن هذا.. سبق أن اعتذرت، ولكن لا دليل يبرهن عن مدى أسفي.. صحيح؟

أخذ الصينية منها بحزم، ووضعها جانباً.

ـ ستفهم رودا يا حلوتي.. فستزعجها مساعدتك أكثر مما أزعجتها أوامرك ليلة أمس.. فهي كمعظم النساء تناقض نفسها.. وسترى أنك تتطفلين على اختصاصها.

ـ كان يجب أن تكون محامياً.. أم لعلك لا تفهم سوى النساء؟

في الطريق إلى الشاطىء سألت:

ـ منذ متى يعمل رودا وهاري معك؟

ـ منذ زمن طويل.. أنقذ هاري حياتي مرة في نيويورك.. ولمّا اكتشفت أن لا وظيفة دائمة له، سألته ما إذا كان يرغب هو وزوجته في

المجيء إلى هنا لرعايتي . . وهما معي منذ ذلك الوقت .

ـ ألا يشعران بالوحدة على الجزيرة؟

ـ لا يتذمران . . لديهما أصدقاء في بارباروس يزورانهم باستمرار . . لقد أمضيا يومين هناك في الأسبوع الماضي .

وجدت مياه البحر دافئة فراحت تسبح مستمتعة . لكن ثورن كان أقوى منها . . وقد مكنته قوته وقدراته على المناورة من الإمساك بها دائماً وفي كل مرة كان يعانقها رغم احتجاجها . . أخيراً حين تعبت من مقاومته استسلمت . . ولولا تورطها بلعبة الأخوين سمولود الخطيرة، لتمكنت من الاسترخاء التام .

مرت الأيام التالية ببطء . . وضعت ميرا اللوم على عزلة الجزيرة ووحشتها فبسبب هذا كانت تقرأ أكثر وتنام أكثر . . أحياناً، حين لا يكون ثورن موجوداً كانت تطلب من هاري أن يحمل لها كرسي نوم إلى ما بين الأعشاب المتنامية حيث كانت تقضي ساعات بالاستحمام بأشعة الشمس .

لم تعرف ميرا متى بدأت فكرة إقامة فندق على الجزيرة تبدو كريهة لها . . ولكن لماذا تهتم؟ فقبل أن يُبنى شيء هنا، تكون قد رحلت . . أضف إلى هذا أن أمثال سمولود لا يدمرون الطبيعة بل يحاولون تحسينها وتطويعها . . ولكن صوتاً صغيراً همس في أعماقها أنه سيختفي هذا الجمال البري، وستصبح مكاناً مثالياً آخر للأثرياء .

كانت تشعر بعدم الراحة بسبب هذه الأفكار، لذا قيدت حركتها فاختارت إما الشاطىء وإما الحديقة إذ عليها عدم التعلق بالجزيرة . . فسرعان ما سترحل إلى الأبد .

عندما وجدها ثورن تقرأ كتاباً في أحد الأمسيات، أحست بالحيرة لأنه لم يصدق أنها تحب القراءة فعلاً . حتى الآن، كان يمضي جميع أمسياته معها تقريباً، أما الليلة بعد العشاء فقال إنه يتوقع مكالمة هاتفية، وقصد مكتبته . . أحضرت ميرا كتاباً من غرفتها فهي تريد أن تعرف من ارتكب

الجريمة، ولكنها لم تتمكن من التركيز فهناك أمور تشغل بالها . . انقلب الكتاب رأساً على عقب بين يديها وهذا ما لاحظه فوراً عندما عاد فجأة .

تناول الكتاب ثم أغلقه ونظر إلى الاسم المطبوع بأحرف ذهبية على غلاف أزرق .

ـ لا أذكر أنني اشتريت هذا .

ـ لم تشتره . . وجدته أنا في مكتبة الفندق .

ـ أهو من مؤلفيك المفضلين؟

أقلقها أن يعتقد أنها مغرمة بالكتب خشية ألا يتماشى مع الصورة التي تحاول ابتداعها عن نفسها . .

ردت بعدم اكتراث : لا بأس به . .

التوى فمه : لم التظاهر بالمطالعة إن كنت لا تحبينها؟

ـ لم أكن أتظاهر . .

ومضت عيناه بنفاد صبر مفاجىء :

ـ ميرا! لا أريد المزيد من التظاهر بيننا .

لم تفهم قصده . . ولأنها ظنت أنه يشير إلى شيء آخر همست مذعورة : عمّ تتحدث؟

جلس إلى جانبها :

ـ لِمَ أنت منزعجة دائماً؟ أريد فقط أن تسترخي . . والأهم أنني أريد منك أن تتوقفي عن التوتر كلما اقتربت منك .

صاحت بإحباط لأنه أحس بأشياء ظنت أنها أخفتها عنه :

ـ أنت مخطىء .

ـ تعالي . . سأريك .

أوقفها وضمها بين ذراعيه . ثم رفع وجهها ونظر إليه فتلاقت عيونهما .

تمتم : «أرأيت؟»

هزت رأسها بعجز وكان قلبها يخفق بشدة.. قالت لذاتها هذا مخيف.. أنا عرضة للخطر، وهذا هو الأمر ما دمت معه.. وهناك شيء آخر.. إن ذاك البرود الذي كان يحدق بها يتحول إلى حرارة غريبة كلما كان معها.. وهو شعور جديد لا تفهمه.. أهذا يعني أنها في أعماقها غير باردة كما ظنت دوماً؟

قال بصوت أجش:

ـ ألا تشعرين بهذا التيار الذي يسري بيننا؟

علقت أنفاسها في حنجرتها فحاولت الابتعاد عنه. لكنه رفض السماح لها بالابتعاد وعوضاً عن ذلك، قربها منه أكثر فأكثر.

قالت بارتباك: «أرجوك ثورن..! ماذا لو رأتنا رودا؟»

ـ لقد نامت منذ ساعات.. تعرفين أنها لا تعود إلى هنا حتى الصباح.

ـ لا يمكن أن نتأكد..

ولكنه أصمت احتجاجها بيده.. وعندئذ شعرت بمشاعرها تتحرك في أعماقها.

وما هي إلا هنيهة حتى بدأت يداها اللتان كانتا تدفعانه تتعلقان به فتساءلت بيأس عما أصابها.

يا إلهي! شهقت وقد طغى عليها شعور اجتاحها من رأسها إلى أخمص قدميها.. لم تتمكن من الحراك حتى لو أرادت!.. وجدت أن من العسير التفكير السوي.. ولم تستطع سوى تحريك رأسها من جانب إلى آخر بعدم ثبات.

لم تكن تهز رأسها لتنكر ما كان يقوله ثورن بل لتحاول إيجاد بعض من صفاء الذهن.. إنها بحاجة للتفكير لتحمي نفسها.. فثورن يشكل تهديداً خطيراً عليها وعلى خططها.. فهو قادر على جعلها عجينة بين يديه.

توسلته قائلة: «دعني».

لكنه كان أعمى وأصم أمام توسلاتها:

ـ لن أتركك تهربين..

لحظتئذ عرفت أن عليها الخلاص حقاً.. لذا حاولت وضع مسافة بينهما.

ولكن يديها عجزتا عن التحرك ومكثتا على صدره القاسي ثم عادتا إلى ذراعيه اللتين كانتا تحتضنانها. ولكنها كانت تشعر بخوف كبير..

منعها عناق ثورن من التفكير في أي شيء عداه.. ثم طارت منها كل مقاومة.. وارتفعت ذراعاها لتلتفا بقوة حول عنقه. فدس يده في شعرها ليتمتم بصوت أجش:

ـ أنت ساحرة.. لك تأثير غريب فيّ.. لا أستطيع الخلاص منه.. وهذه حالك أنت أيضاً أرجو أن تدركي هذا حبيبتي!

في تلك اللحظات بالذات عاد إليها شيء من التعقل فشهقت وقالت بصوت مفكك:

ـ آه! ثورن لم يسبق أن كنت مع رجل..

كانت تقول الحقيقة.. ولا بد أن الصدق في صوتها اخترق رأسه فما إن سمع توسلها حتى تسمّر ثم ما لبث أن ارتدّ عنها وكأنه تلقى ضربة قوية.. ولكنه كان متوتراً وأنفاسه قوية متهدجة.. عندما تمكنت ميرا من النظر إليه وجدته ينظر إليها بعينين محترقتين.. ثم سألها:

ـ هل أنت واثقة؟

همست: «نعم».

ـ ما زلت عذراء؟

ابتلعت ريقها بصعوبة واغرورقت عيناها بدموع لم تدر من أين جاءت هزّت رأسها إيجاباً.

ـ يا إلهي!

لم يتركها فوراً، بل دفن وجهه في شعرها:

ـ لم أعرف . . أدرك أنك صغيرة السن لكن . . ظننت . .

أصغت ميرا إلى تأوهاته وإلى توبيخه لنفسه بشيء من عدم التصديق.

قالت محاولة أن تشرح له:

ـ لم أهتم قط بأي رجل لأنني لا أحب العبث.

رفع ثورن رأسه . . فقد عكست نظرته الملتهبة مرجلاً من المشاعر . . ولكنها رأت كذلك أنه مسيطر على مشاعره.

ـ كيف تمكنت من الحفاظ على طهارتك . . ولك طبيعة مشبوبة العاطفة؟

ـ لست من الأشخاص الذين يهتمون برغبتهم فقط. أنا آسفة ثورن . . لكنني هكذا.

تلاشى نفاد الصبر عن وجهه، وحل محله حنان دافىء.

ـ توقفي عن القلق ميرا . . سبق أن قلت لك إنني لا أعتقد أنك تعرفين ما تريدين، أو ماذا أنت؟ لكن الوقت متأخر على مناقشة مثل هذا الليلة . . من الأفضل أن تحاولي النوم وإلا اتهمتني رودا في الصباح بما لا يعلم سوى الله ما هو.

عندما توجهت ميرا إلى الفطور في اليوم التالي لم تجد ثورن في المنزل ولم يكن هذا أمراً جديد . . نظرت من أحد الأبواب الزجاجية التي تنفتح إلى الحديقة فلم تجد له أثراً . . أبرز السروال القصير الذي ترتديه هذا الصباح جمال ساقيها الطويلتين النحيلتين . . ولم تدر لماذا أزعجت نفسها بكل هذه الأناقة . .

سألت ورودا تحمل القهوة:

ـ أين ثورن هذا الصباح؟

ـ في مكتبته آنسة ميرا . . إنه فيها منذ منتصف الليل.

عبست ميرا: في المكتبة؟ وماذا يفعل هناك بحق الله رودا؟

ـ لا يتحدث عما يفعل أبداً . . ربما ينام فقط.

جاء صوته من خلفها:

ـ أجل . . لقد نمت هناك.

ـ آه!

نظرت إليه ميرا من فوق كتفها:

ـ أعتقد أن عليّ تغيير موقع الكرسي لأراك تدخل.

لم تكن ابتسامته كما هي عادة . . ما إن خرجت رودا، حتى انحنى يعانقها ثم تركها وجلس.

ـ لم أنم ليلة أمس.

أشاحت بوجهها عنه وابتلعت ريقها:

ـ أنا آسفة . . أعتقد أنها غلطتي.

ـ ولم تكن غلطتي.

سكبت له القهوة ثم قدمت له الفنجان . .

أضاف: إن كنت منزعجاً هذا الصباح فليس الذنب ذنبك . . لقد تلقيت مكالمة من شخص يريد رؤيتي على الجزيرة الرئيسية.

لم يدعها لمرافقته فارتابت بالأمر. هل الاتصال من امرأة . . أهي كارمن بريغز . . لكنها أعادت النظر في فكرتها عندما أضاف:

ـ بإمكاني اصطحابك . . لكنني قد أتأخر. ولا أريد منك أن تبقي بمفردك، فقد تهجرينني من أجل مليونير أميركي!

قالت مازحة: «قد أكون هنا آمن من أي مكان آخر».

رافقته إلى المرفأ الخشبي وهناك قالت:

ـ لم تستقبل زائراً منذ وصولي إلى هنا.

شدها إليه بقوة:

ـ وهل رغبت يوماً في أحد سواي؟

غضت طرفها لئلا يلاحظ التحفظ فيهما.

تنهدت «لا . . ربما لا أريد منك أن تعرف كم سأشتاق إليك إن غبت

عني».

تنهد تنهيدة رضى:

ـ عندما أعود.. نتكلم.

ابتسمت ميرا وهزت رأسها إيجاباً، أما هو فتركها وصعد إلى سطح المركب. راقبته يتحرك بخفة ورشاقة ليحضر المركب، ثم شغل المحرك وما لبث أن تعالى رذاذ الماء ما إن انطلق مبتعداً نحو المياه الزرقاء.

لوح بيده صائحاً: «كوني طيبة».

تساءلت ساخرة: وهل بإمكاني القيام بشيء آخر؟ فالجزيرة أشبه بسجن كبير.

الواضح أن ثورن منجذب إليها والخطوة التالية هي دفع مشاعره أكثر فأكثر حتى يسألها الزواج به، وإن حدث هذا ستضع شروطاً محددة أهم ما فيها أن يغادر «كوريسا».. في الأيام القليلة الماضية تظاهرت بالضجر.. لذا لن يكون صعباً عليها إقناعه أنها لا تستطيع العيش هنا.

لم تصدق أنه قادر على حرمانها من أي شيء، لكن لا ضير من مراجعة كل شيء لمجرد التأكد من صواب خطواتها.. بعدما يعرض ثورن عليها الزواج ستتصل بسمولود.. ستطلب منه أن تتصل بهما من هنا.. وتتظاهر أنها تكلم الوكالة. والأمر مدبر، وسيفهم الأخوان سمولود بالضبط ما ستعنيه حين تقول إنها ستتزوج، وإنها لم تعد بحاجة إلى العمل كعارضة أزياء في الوقت الحاضر.

كم أثر فيها عناق ثورن الليلة الماضية، ولكن لماذا لم تختبر الأحاسيس ذاتها مع بيري؟ إنها لا تدري!

كادت تصيح إحباطاً حين جاءت رودا تخبرها أن ثورن سيتأخر:

ـ يقول السيد إنه آسف آنسة ميرا.. وإنه سيعود في وقت ما غداً.

لم تستطع ميرا تناول طعامها بهدوء لأنها كانت تتساءل عما إذا كانت كارمن هي السبب في تأخيره.. ظل السؤال يراودها ويقلقها.. وبدا لها إن

من الإجحاف إضاعة كل الجهد الذي بذلته لتفتن ثورن هباء بسبب كارمن.. كانت غبية عندما تركته يذهب بدونها.. أشعرها التفكير فيه وهو يتناول العشاء مع امرأة أخرى بالسقم.. أقنعت نفسها بأنها لا تشعر بالغيرة وبأنها بأمان منه لأنه بعيد، فليقضِ الليل مع نصف دزينة من النساء.. فماذا يهمها؟

لم يعد حتى وقت متأخر من بعد ظهر اليوم التالي.. وكم شعرت ميرا بالراحة حين رأته فقد هرعت إليه وكادت تحيطه بذراعيها.

صاحت: «اشتقت إليك!»

ابتسم لها: حقاً؟

ـ أجل..

أذهلها أن تدرك أنها تقول الحقيقة!

ضحك:

ـ عظيم! أنا آسف على تأخري.. لكن التأخير يستحق أمام مثل هذا الترحيب الحار.

عبست فجأة، فقالت:

ـ خلتك كنت مع الآنسة بريغز.

ارتفع حاجباه:

ـ كارمن؟ لقد رأيتها.. لكن لا شأن لها بمشواري إلى باربادوس.

كان رداً مراوغاً، لكن ميرا أجبرت نفسها على الاكتفاء بالرد. فلن تلح عليه ما دام لا بد أن يشرح لها ماذا كان يفعل على الجزيرة الرئيسية.

تمتم في أذنها: «أحمل إليك هدية».

كان يحمل حقيبة على كتفه، فضحك حين نظرت إليها:

ـ ليس هنا.. بل في جيبي.

تهلل وجه ميرا الجميل.. فهذا أمر افتقدته كثيراً منذ موت والديها. فطالما سخيا عليها بالهدايا..

سألت بلهفة: «ما هي؟»

- طماعة! عليك الانتظار.

تذمرت:

- ليتك لم تخبرني بأمرها.. فالآن سأبقى على أحر من الجمر حتى أعرف ما هي.. وماذا إن غيّرت رأيك؟

- لا.. لن أغير رأيي.. من ناحية أخرى قد لا تكونين مستعدة لقبول ما اشتريته لك.. فهذا وقف على الرد الذي ستردين به على سؤالي.

أحست بالتوتر واللهفة وهي ترتدي ملابسها للعشاء. أمضت ما يقرب من ساعة في الحمام في محاولة منها للاسترخاء وللتخفيف من توتر أعصابها.. وكان أن ساعدتها المياه الدافئة.. وبعدما جففت جسمها وأكملت زينتها نظرت إلى صورتها في المرآة نظرة رضى فرأت أمامها امرأة خضراء العينين، جميلة جذابة.. فإن كان ثورن على وشك أن يعرض عليها الزواج فلا بد أن تظهر بأحلى حلة.

أشارت الأضواء الضئيلة والشموع التي وجدتها في غرفة الطعام إلى أن استنتاجها في محله.. وكان ثورن بانتظارها.. عندما نظرت إلى وجهه المتجهم قررت بتهور وضع خطتها قيد التنفيذ، فسألت مبتسمة:

- بم تحتفل؟ بعودتك أم برحيلي؟

تقدم ثورن إليها:

- رحيلك.. ظننتك باقية قدر ما تشاءين؟

تنهدت وحاولت ألا تغرق في كل تفاصيل مظهره وأن تتجاهل نظرته العابسة.

- قد أبقى إلى الأبد معك ثورن.. ولكنني لا أحب الجزر كثيراً.. كما عندي عمل أسترزق منه.

تجاهل كل شيء إلا كلامها عن الجزر:

- أوَلم تحبي هذه الجزيرة؟

أبدت عدم راحتها، ورمت بكل شيء في مغامرة أخيرة.. وقالت وكأنها تعترف:

- ليس كثيراً..

عرفت أنها أمام أمرين، إما تعبّد الطريق أمامه ليترك «كوريسا» إلى الأبد وإما الهزيمة الشنعاء.

***

www.elromancia.com

٦ ـ الندم

ضحك ثورن . . وقال :

ـ حسناً . . على الأقل أنت صادقة . لكن لا تشغلي بالك بالجزيرة، ولا بالعودة إلى العمل . . فلدي خطط أخرى لك .

كانت عيناه تداعبانها بدفء شديد حتى ظنت أنها لن تخسر مغامرتها . قالت مبتسمة :

ـ لقد أثرت فضولي . . حتى بت لا أقوى على الانتظار!

قال بثبات :

ـ فيما بعد . . ها هي رودا تحضر عشاءنا ولا أظنها ترغب أن نتأخر أكثر .

اعتذرت ميرا لرودا :

ـ إنها غلطتي . . نسيت الوقت .

ردت رودا بلهجة تسامح :

ـ تبدين جميلة جداً الليلة آنسة ميرا .

صاح ثورن : أنا جائع!

رغم ادعائه الجوع لم يأكل أكثر منها . واثقة أنه يفكر في طلب يدها . . فمعظم الرجال يأخذون أمراً كهذا على محمل الجد . . عرفت أن عليها القبول ولكن الغريب أنها شعرت بالألم بدل الثقة بالنفس . . ترى ما سبب هذا الألم؟ لا تعلم . ثم لمّا مرّ ذلك الألم شعرت بالبرد .

عندما جلبت رودا القهوة قالت لهما عمتما مساء ثم انسحبت، أما ثورن فحمل الصينية إلى غرفة الجلوس فوضعها بهدوء وقال :

ـ هل مر في حياتك عدد كبير من الرجال؟ أقصد رجالاً وقعت في حبهم؟

صرفت التفكير عن بيري لأنه لم يكن يعني لها شيئاً ولقد كرهته بعد فسخ خطوبتهما : لا!

ـ ميرا . . ما هو شعورك نحوي؟ ما هو شعورك نحو الزواج بي؟

حملقت ميرا به . . الآن بعدما حلت اللحظة التي عملت بجهد من أجلها، علق شيء ما في حلقها فمنعها من الرد الفوري وتسارعت أحاسيس لا توصف في نفسها كتلك التي اختبرتها وقت العشاء، وهذا ما جعلها ترتجف . . ربما هذا الشعور رد فعل على شيء لم تتوقع حدوثه فعلاً . . عليها في وقت ما من هذه الليلة قبول عرض ثورن .

سألته بصوت أجش : «لماذا؟»

أجفله ردها : لماذا؟ بسبب الأسباب العادية كما أعتقد . . ولأنني أحبك .

ثورن يحبها؟ لكنها امتنعت عن السخرية لأنه قد يكون صادقاً . قد يكون الحب هو السبب الحقيقي وراء عرضه . . ولكن ألا يمكنه الحصول على كل الجمال بدون أن يلزم نفسه؟ . . إذن ما يحس به أقوى من مجرد رغبة في امتلاك امرأة .

سألها : لمَ كل هذه الدهشة؟ ألم يسبق أن اعترف لك رجل بحبه؟

تورد وجهها وفكرت في بيري الذي تمنت لو لم تفكر فيه . . قالت هامسة وهي تتساءل أين ذهبت ثقتها بنفسها :

ـ ليس الأمر كما تقول بل المسألة أنني ظننتك من الأشخاص الذين لا يقعون بالحب . خلتك لن تكون ضعيفاً إلى هذ الحد . .

ابتسم :

- وأنا لم أعتقد هذا . . ولكن ماذا عنك؟ وماذا عن مشاعرك؟

هنا المصيبة إذ لن تتمكن من صده إلى أجل غير مسمى . . فكان أن أجبرت نفسها على الكذب .

- أنا أحبك ثورن . .

- لكن . . ؟

ابتلعت ريقها لنفاذ بصيرته :

- غير أنني غير واثقة من قدرتي على العيش هنا .

بدا أنه استرخى وكأن باله اطمأن لأن المشكلة تقف عند هذا الحد .

- لقد أقلقتني دقائق . . سأبيع الجزيرة حبيبتي .

- سـ . . ستبيع؟

- توقفي عن التلعثم والاستغراب .

انحنى يعانقها :

- . . إذا كانت المسألة مسألة خيار!

هل هذا سؤال؟

مررت إصبعها على خدها :

- أفضل أن تبيع حالاً وألا تنتظر أبداً .

- ألا تثقين بي؟

- ليست المسألة مسألة ثقة . . وعلى أي حال لم أقصد هذا . . فما أعرفه أن الرجال يطلقون وعوداً كثيرة قبل الزواج ولكنهم بعد الزواج سرعان ما ينكثون بعهودهم . . لدي صديقات انتهى زواجهن بالفشل بسبب هذا!

- إذن تريدين مني أن أفترق عن الجزيرة حالاً؟

- لست على عجلة ولكنني أتمنى أن يحدث ذلك قبل أن نتزوج .

ران صمت مطبق قطعه ثورن ببطء .

- أقدر لك صراحتك وصدقك ميرا . . لن أهينك بألا أبادلك

بالمثل . . كان دور «كوريسا» ملء الفراغ في حياتي . . لقد ساعدتني على تحقيق هدف لم يعد له وجود . . سأبيع الجزيرة بكل سرور لذا لا تشعري بعقدة الذنب .

بللت الدموع الغامضة التي لاحقتها مؤخراً عينيها :

- أوه . . ثورن! لا أدري ما أقول!

ضمها إليه : هس .

كان على وجهه حنان ولكنها تساءلت عن السبب الذي جعل يداه تؤلمانها هكذا .

- سنجد السعادة حيث وُجدنا حبيبتي! أعرف من . . سيأخذ الجزيرة غداً . . وما إن تذهب حتى نتزوج .

- إنه لأمر رائع .

مد يده إلى جيبه ، أخرج علبة فيها خاتم ، وقال مبتسماً :

- هذه هي هديتك ، والآن فلنحتفل .

حدقت بالخاتم في يدها . كان رائعاً ولكنه لا يمكن أن يقارن بخاتم بيري الألماسي الضخم . . مع ذلك نظرت إليه نظرة لم تشعر قط بمثلها . . ونسيت للحظات أنها تلعب لعبة .

همست : «إنه جميل ثورن!»

- وأنا مسرور لأنه أعجبك .

ضمها إليه وراح يعانقها بوحشية تقريباً . . كانت ذراعاه أشبه بقيد من حديد وكأنما يحاول أن يقسمها قسمين وكم أذهلتها شراسته معها . .

قال شاهقاً :

- سنتزوج ما إن أتخلص من الجزيرة . . لن تجعليني أنتظر أكثر من هذا؟

حاولت المزاح : «لن يحدث ذلك إن كنت طيباً معي» .

- أنوي معاملتك بالطريقة التي تستحقين حبيبتي .

ربما كان الدور الذي تلعبه هو الذي جعلها فجأة تتوتر، فتحركت بعدم ارتياح.

- يبدو لي هذا نذير شر، ثورن؟

ضحك: أعد أن أضربك مرة واحدة في اليوم فقط.

أحست أن ضباباً يغزو عقلها.. فابتعدت عنه بحذر لتمهل نفسها وقتاً للتفكير.

سألت: «هل ستخبر رودا وهاري بأمرنا؟»

- بالتأكيد.

سحبت أنفاسها بصعوبة وتمنت في هذه اللحظة لو ارتدت شيئاً آخر يخفي مفاتنها ونسيت أنها خرجت تنوي إغراءه.

- وهل سيخيب أملهما بشأن الجزيرة؟

- إنهما مولعان بها.. ولكن لا يهمهما أين يقطنان!

- وأين سنعيش؟

لم يبدُ أنه لاحظ الغلطة التي ارتكبتها في سؤالها.

- حيث تحبين حبيبتي.. سنفكر في الأمر بعد بيع الجزيرة.. اعلمي أنك لن تتزوجي رجلاً محدودة مصادره حبيبتي.

ابتسمت: «لا مانع عندي أن أكون زوجة رجل فقير.. ولكن هل تعرف كم ستتلقى ثمناً للجزيرة؟»

مرر أصابعه على ذراعها مفكراً:

- قد أقرر وضعها في المزاد المفتوح.

بدا بعض الانزعاج على وجه ميرا لأن هذه الخطة لن تناسب خطط سمولود.

قالت: «لا نريد أن ننتظر أكثر من اللازم».

- أتعنين حتى نتزوج؟ لماذا تريدين ربط الزواج ببيع الجزيرة؟ فنحن مخطوبان.. تذكرين هذا.

ارتدت متوترة:

- أفضل أن أنتظر ثورن، ليس لأنني أرغب في هذا ولكنني طوال هذه السنوات كنت أدّخر نفسي لليلة الزفاف.

ولم تكن كاذبة في هذا على الأقل!

- لكنك لم تكوني مخطوبة من قبل؟

- لا..

- انظري إليّ حبيبتي.. أرجوك!

في تلك اللحظات لم يعد لأي شيء سواه أهمية.

أردف همساً: أنت بحاجة إليّ ميرا.. تلك الليلة خفت من براءتك.. ولكن الوضع اختلف اليوم فقد اكتشفنا أننا مغرمان.. دعيني أظهر لك حبي.. حبيبتي.. وسترين ما أعني.

شعرت بأنفاسه تلفح وجهها ولكنها لم تستطع أن تتظاهر أنها لم ترَ شيئاً، ضجّ الدم في أذنيها وأدركت أنه بطريقة ما نسف كل دفاعاتها.. لقد سمحت لنفسها بالاندفاع إلى موقف خطير بسبب إساءة تقدير تأثيره فيها.

لم تضطر إلى التمثيل لتبدو متوترة:

- آسفة حبيبي.. أفضل فعلاً الانتظار.

- وهل أنت متأكدة؟

نظرت إليه لحظات ثم غضّت طرفها: أجل.

وضع يده تحت ذقنها ليجبرها على النظر إليه:

- يكاد صبري ينفد.. ولكنني لا أريد منك أن تقلقي.. أعتقد أنني قادر على الانتظار.. طالما لست مضطراً إلى إبعاد يديّ عنك كلياً.

هزت رأسها بتمرد فما زالت تشعر بالخوف لأن رجلاً مثله وقع في حبها.. لا شك أنه أحد النماذج البشرية المتفوقة جسدياً وعقلياً.. فذكاؤه خارق لذا أذهلها أن تتمكن من خداعه بسهولة.. ربما هناك بعض الحقيقة في القول الشائع «الحب أعمى!»

اعتقدت أنه سيرغب في مزيد من البحث في المستقبل، واستغربت إبعاده إياها عنه.

قال: «لماذا لا نذهب لنعدّ المزيد من القهوة؟ وبعد ذلك نامي باكراً».

وجدت ميرا صعوبة كبيرة في النوم تلك الليلة، مع أن الوقت لم يكن باكراً عندما أوت إلى فراشها.. فقد وضع بضع اسطوانات أصغيا إليها بصمت. وكانت الساعة تقارب الثانية عشرة حين أوت إلى فراشها حيث ظلت مستيقظة ما يقرب الساعات.. وبسبب هذا الأرق نامت في وقت متأخر، لذا كانت أعصابها في حالة استنفار حين استيقظت..

بعد بضع دقائق من مناقشة الذات تمكنت من العودة إلى برودها واتزانها، فتوجهت إلى المطبخ لتحصل على بعض القهوة.. لم تعتقد أنها قادرة على تناول شيء من الطعام.. وبما أن الساعة جاوزت التاسعة أدهشها أن تجد ثورن في غرفة الطعام.

ابتسم لها: صباح الخير حبيبتي.

أزعجتها ابتسامته.. ولكنه انحنى فوقها يريد معانقتها فارتجفت وعندما تمادى احتجت:

- ثورن! ما زال الوقت باكراً على هذا!

بدت على وجهه التسلية، ولكنه بدا في الوقت ذاته حائراً

- حبيبتي.. ما إن نتزوج حتى تصبحي لي ليل نهار، وليس فقط خلال الليل..

اضطرت إلى التمثيل فهمست: أجل.

رأت عينيه تسودّان وكأنما مجرد التفكير في أنها له يبعده عن المرح ويقرّبه من حافة الجنون. بدأت تدرك أي نوع من الرجال هو.. فقد ظنت مرة أنه يميل إلى التزمت، ولكنها كانت مخطئة. فهي تعرف أن من السهل إثارته ومن سوء الحظ أنه قادر على إثارتها إلى حد لا يوصف.. ولكن هذا غير صحيح.. إنها خدعة ما.. على كل حال، ستكون سعيدة بعودتها إلى

لندن.

في تلك اللحظة رن جرس الهاتف وكان الرنين قادماً من مكتبة ثورن. يا للصدفة! كادت تطلب منه استخدام الهاتف لتتصل بوكيلها.

ابتسم ثورن:

- لا راحة للمتعب.. من الأفضل أن أرى من المتكلم.

وجدت الوقت للتفكير ولكن هذا لم يساعد أعصابها التي كانت متوترة بشكل رهيب، فكرت في اللجوء إلى إحدى نوبات غضبها الطفولية التي تدفعها عادة إلى رمي الأشياء وتحطيمها.. لم يكن الحاضر فقط هو ما يشغل بالها بل المستقبل. تعرف أن ثورن خطر وأنه من غير السهل التخلص منه كما تظن، وهنا تكمن أصعب خطوة في العملية كلها.. تساءلت كيف ستتمكن من تنفيذ ذلك.

عاد بهدوء أما هي فكانت غارقة في أفكارها. لذا تفاجأت عندما سمعته يقول تلك الكلمات التي وقعت على رأسها كالصاعقة: المتصل هو تالبوت سمولود.

كادت تموت من الصدمة.

- تا.. تالبوت سمولود؟

- أجل.. يريد أن يعرف ما إذا أقنعتني ببيع الجزيرة، ففضلت أن تتحدثي إليه بنفسك.

أصبح وجهها كالقماش الأبيض:

- لكن.. لا.. لا أستطيع! لا يحق له..!

- بل تستطيعين..

امتدت يده إليها بشراسة وكأنما يريد جرّها إلى مكتبه وما هي إلا نظرة إلى وجهه الغاضب حتى وقعت مغمياً عليها.

عندما استعادت وعيها كانت ممددة على الأريكة وثورن يرش الماء البارد عليها.

صاح: آه.. لقد استعدت وعيك إذن. كان عليّ أن أعرف أنك متآمرة مع ذلك القذر.. فلست الرجل الأول الذي يخدعه وجه امرأة جميل!

أشعرها الازدراء في صوته بالدمار.. وتحطمت ميرا إرباً إرباً.

همست: «ما الذي ستفعله؟»

صاح ليخيفها: «أمور كثيرة، كثيرة».

كيف للأخوان سمولود أن يفعلا هذا بها؟ أخفت وجهها بين يديها ولكنها لم تعرف ما إذا كان البلل الذي تشعر به من جراء الدموع أم من جراء الماء الذي رشها به.

قالت بفضل الصدمة: «لقد وعدا ألا تعرف شيئاً!»

ران صمت طويل مشحون اخترق أعماقها.. فذعرت ورفعت بصرها.

ـ الهاتف!

ـ لم يكن تالبوت سمولود المتحدث بل هاري الذي اتصل بي من باربادوس.

نظرت إليه والرعب يغمرها، فقد ظهر على وجهها مضامين ما قاله ثورن ففهمت لعبته:

ـ خدعتني!

خالته لبرهة يهمّ بضربها.. ولكنه تراجع.

قال بحدة: يا إلهي!.. كيف تجرؤين؟ أنت من جئت إلى هنا بغية خداعي! ولولا ابن عمي هاري لانطلت عليّ خدعتك.

راحت تبحث عن كلمات مناسبة... أضاف: «أراد عدد من الناس شراء «كوريسا».. لكن الأخوين سمولود عرضا أعلى سعر.. ولو سار كل شيء بحسب الخطة.. خطتك لكنت طلبت يدك كما حدث ليلة أمس ثم ما هي إلا فترة وجيزة حتى أخرج من جزيرتي.. ومن زوجتي! كم كنت تنوين البقاء معي بعد بيع الجزيرة ميرا؟»

كانت ميرا ترتعش وكأنها تلقت ضربة قاضية.. ثورن يعرف كل شيء.. هددتها موجة ظلام أخرى ولكنها قاومتها.. فعليها مهما حدث عدم فقدان الوعي مجدداً..

قالت بصوت مختنق:

ـ أستطيع أن أشرح لك، ثورن.

ـ ماذا؟ قد يكون الإصغاء مثيراً للاهتمام، لكن ليس لدي استعداد لسماع المزيد من أكاذيبك. لا أحتاج منك أي شرح. أعرف ما حدث، وما لا أعرفه أستطيع أن أحزره.

ـ قد تكون مخطئاً.

ـ لا.. لا أظن أن هناك مما يفيد في بحث الأمر. أنا غاضب من نفسي بمقدار غضبي منك.. فلا رجل يرضى أن يكون أحمق.. عندما أرسل الأخوان سمولود امرأة لتنفيذ مآربهما وقعت في أقدم حيل التاريخ!

تعاظم الألم في حنجرتها فأثّر في صوتها إذ قالت بصوت متهدج:

ـ كيف عرفت ما دمت لم تتصل بسمولود..

قال ساخراً: ولمَ لا..؟ عليك التحلي بخبرات كثيرة قبل أن تضعي يدك على هذا النوع من الخدع.

نظر إليها بازدراء:

ـ إذا كنت تريدين وضع ملامة على شيء فضعيها على تلك التمثيلية التي صدرت عنك في فندق برنت، يوم رحل فريقك.. أم لعلهم متعاونون معك؟ ذلك الصباح لم يحضر ثلاثة من موظفي الاستقبال فاضطر هاري إلى الجلوس وراء المكتب.. في تلك الأثناء تلقى اتصالاً من رجل إنكليزي يريد التحدث إليك فأوصل الخط بك.

صمت قليلاً ثم أردف:

ـ شعر بأنه يعرف صاحب الصوت الذي شابه شيء من التردد، ولكنه قرر أن يتذكر صاحب الصوت. ثم اكتشف أنه تحدث إلى تالبوت

سمولود.. عندئذ لم يعرف ماذا يفعل.

شهقت ميرا: «وكيف استطاع أن يكون واثقاً إلى هذا الحد؟»

رد ببرود: «لم يكن واثقاً.. أقام الأخوان سمولود مرتين في الفندق عندما كانا يحاولان إقناعي بالبيع.. والواقع أنه لم يكن له اتصال بأي منهما.. ولكنه شك في أن المتكلم سمولود فقرّر التأكد».

ـ عندئذ استدعاك.. وإلى هناك ذهبت منذ أيام؟

سأل ساخراً: «وكيف حزرت؟ أخبرني برنت عن شكوكه لأنها تشملك.. ولهذا أراد رؤيتي على انفراد.. لم نتطرق إلى ذكرك بالتأكيد، وأمضيت فترة الصباح بالتفكير».

قالت ساخرة: «ولا شك أن تفكيرك أنار طريقك».

وافقها الرأي بحدة:

ـ فعلاً.. تذكرت عدة أشياء كان عليّ أن أرتاب فيها.. منها تذمرك من الإفلاس، ثم الحصول فجأة على مال ساعدك على الإقامة في فندق فاخر. ثم قبلت دعوتي للإقامة هنا.. ثم تذكرت أنني كلما لمستك تتجمدين.. أرجوك.. لا تحاولي الإنكار ميرا.. كان عليّ أن أفهم النساء أكثر. كنت تجبرين نفسك على تقبل درجة من الحميمية لا تريدينها.. ولم تكن الجزيرة هي المشكلة.. بل كنت أنا.

التوى فمه بشكل ساخر: ولأنني كنت أحاول تبرئة ساحتك، ولأن ما لدي من معلومات غير كاف.. اتصلت بمؤسسة في لندن يمكن الاعتماد على خدماتها، فأمنت لي المعلومات التي كنت بحاجة إليها.. أعلموني أن والديك تركاك مفلسة بعد موتهما الذي وقع قبل ثمانية أشهر لا قبل أربع سنوات ولكنك ظللت تعيشين ببذخ ولم تكوني تعملين إلا قليلاً.. شقتك مرهونة لأمر مؤسسة سمولود.. وحتى وقت متأخر كنت خطيبة رجل لندني ثري.. لهذا يا عزيزتي ميرا جمعت كل المعلومات عنك.. ولكنني ما زلت أجهل كيف كنت ستتخلصين مني بعد تسليم الجزيرة.. إنما

سأتوصل إلى معرفة هذه المعلومات في النهاية.

لم تصدق ميرا أن أحداً قادر على المضي إلى هذا الحد الذي وصل إليه ثورن..

صاحت غاضبة:

ـ كيف تجرؤ على إجراء تحقيق عني؟ وكأنما الأخوان سمولود يحاولان سرقتك وسلب جزيرتك اللعينة؟ كانا سيدفعان لك كل بنس تطلبه.

صاح: «وهل هذا عذر برأيك؟ الآن لا يهمني الأخوان بل أنت من يهمني أمرها.. لقد كذبت وغششت لتشقي طريقك إلى هنا، والسبب مكاسب شخصية».

حاولت ميرا تبرير نفسها:

ـ كنت بحاجة ماسة إلى المال.. كان عليّ القيام بشيء.

ـ لماذا لا تقومين بعمل يومي شريف؟ أنت ترفضين العمل كعارضة طوال الوقت.. لأنك كسولة جداً.

يا إلهي! لم يترك حجراً لم يقلبه! صاحت به غاضبة:

ـ لم يكن سهلاً عليّ التكيّف مع حياة العبودية بعد موت والداي.. لقد أثقل الرهن كاهلي هذا عدا نفقات أخرى.

ـ كان بإمكانك ترك شقتك الفخمة واستئجار غرفة.

ارتجفت: غرفة! قد تكون الغرفة أمر مناسب لأمثالك.

ـ عشت في أماكن قد لا تعرفين بوجودها، ولكنني غير مدين لأحد.. ولم ألجأ إلى الخداع والاحتيال للوصول إلى ما أنا عليه.

ردت بمرارة: «لا داعي إلى تبرير نفسك وتصويرها على أنها تمثال للفضيلة لأنك لم تصل إلى أكثر من هذه الجزيرة البائسة..».

تجاهل كلامها مع أن عينيه اسودتا غضباً. قال ساخراً بشراسة:

ـ ماذا حدث لبيري غريتركس؟ هل عرفك على حقيقتك أيضاً؟ أم تراه

ضجر منك بعدما حصل على مراده؟ فلا شك لحظة أنه نال مراده منك..
فسمعته نتنة!

ـ حسناً.. هو لم ينل مني شيئاً ولولا إفلاس والدي..

ـ آه.. تدعين إذن أنه كان يسعى وراء مالك؟

رفضت البحث في هذا الموضوع معه..

ـ لا شأن لك بهذا!

ـ وكنت بدورك تتوقين إلى اللقب الذي كان سيمنحك إياه، أتظنين أن زواجكما كان سيدوم كثيراً بوجود الطمع من الجانبين؟

صوّرت كلماته الأمر وكأنه شائن فلم تشعر إلا ويدها ترتفع لتصفع خده. وكان أن وقعت الصفعة على وجهه القاسي، ولكن هذه الصفعة لم ترو غضبها المشتعل ناراً خضراء في عينيها.

وعندما همّت بصفعه ثانية تمكن من إمساك معصمها وقال بصوت منحشرج:

ـ ستندمين على هذا مئة مرة ومرة قبل أن أنتهي منك!

شهقت: «لن.. لن أكون هنا».

ـ لا تعتمدي على هذا.. ولكن قبل أن نبدأ التفكير في العقاب.. أريد منك بضع أجوبة أخرى.. أفهم الخطوط العريضة عن خطتك العامة مع الأخوين سمولود ولكنك لم تخبريني بما سيدفعونه لك بالمقابل.

ردّت بصوت متحد:

ـ ولمَ أخبرك؟ لتتبجح؟

سأل بقسوة: أخبريني!

لوى معصمها حتى صاحت ألماً، وابتلعت ريقها:

ـ بضعة آلاف فقط هذا عدا أقساط شقتي.

ـ وهل كنت مستعدة للحنث باليمين من أجل هذا؟

ـ ولماذا تأخذ جميع الأمور على أسوأ نحو ممكن؟ لقد نظرت إلى

الأمر فقط على أنه طريقة عملية لأنقذ نفسي من ظروفي القاسية.

ـ ينجح بعض الناس في هذا بشرف.

اشتعل الغضب ثانية في صدر ميرا وهذا ما دفعها لرفع يدها الأخرى ولكنه حذرها برقة:

ـ ما كنت لأفعل لو كنت مكانك.. فللعنف طريقة غريبة في إشعال العنف.. وصدقيني عنفي أمر لا أستطيع السيطرة عليه.

أشعرتها نظرته بالخوف ولكنها صممت على ألا تدعه يرى مدى خوفها منه.

ـ حسناً.. أعترف أنك ربحت.. احتفظ بجزيرتك اللعينة.. فأنا لا أريد رؤيتك أو رؤيتها مرة أخرى.. ولكن، تذكر هذا.. وأنت تسعى لإدانتي.. لقد دعوتني إلى هنا بغية إغوائي، ليس إلا..

صاح ساخراً: يا إلهي! إنها نكتة العصر! أغويك؟ أغوي امرأة فقدت القدرة على عد الرجال الذين كانت على علاقة معهم؟

كادت تقتله ولكنها لم تجرؤ على رفع إصبع في وجهه.. أملت أن تظهر له الكراهية التي بانت في عينيها ما هو رأيها فيه بالضبط!

ـ لم أكن قط على علاقة فعلية برجل وثمة أمر آخر.. أنت تصر على نعتي بالكسل والتكاسل مع أنك شخص لا يعرف شيئاً عن العمل أو بالأحرى هذا ما ظهر لي.

ـ أهذا رأيك؟

ـ أنا هنا منذ أسبوعين..

ـ هذا صحيح.. لم أتوقع أن يكون رأيك بي سيئاً.. ولكن في الأسابيع القادمة سأبذل جهدي لأغيّر رأيك.

ـ الأسابيع القادمة؟

ـ لا تظهري الدهشة آنسة لاوتون.. هل ظننت أنك ذاهبة إلى مكان ما؟

أحست ميرا بشحوب وجهها:

ـ أظنك تتمادى كثيراً.. لن أبقى هنا لأتلقى إهاناتك.. هلاّ أقلّيتني إلى باربادوس حالاً فمن الفندق سأدبر أمر سفري إلى لندن في أسرع وقت ممكن.

ـ أنت مغترة بنفسك! تلقين الأوامر بدون أن تضيفي كلمة «أرجوك أو شكراً لك».. وكأنني أنا المخطىء في حقك. أنت طفلة لعينة شريرة مدللة.. سأكون مجحفاً بحق الإنسانية إن لم أحاول القيام بشيء معك.. في الأسابيع التالية ستقيمين عندي حتى تدركي فداحة عملك.

صاحت بنفاد صبر: «هل أنت مجنون؟ سأطلب من هاري أن يقلّني إلى باربادوس في حال تمنعك عن اصطحابي».

ـ هاري غير موجود هنا.. ولا رودا.. لقد سافرا إلى نيويورك.. فشقيقة رودا مريضة وعندما عرفت رودا أنك هنا لتعتني بي قررت الذهاب.

ـ أعتني بك؟

ـ سمعت ما قلت.

ـ إنه أشبه باختطاف.. لا، لا يمكنك ذلك.

ـ إياك أن تأمري أو تتفوهي بكلمة عن رأي أو ما شابه. من الآن وصاعداً ستحلين محل رودا، وهذا يشمل الطهو.. أنا أتناول الفطور في السادسة والنصف، والغداء والعشاء في الساعات المعتادة.. اعلمي أن طباعي تسوء إن انتظرت.

صاحت بشراسة:

ـ لن تستطيع إجباري.. سأجد من يساعدني على الهرب وهناك الهاتف..

ـ لم يعد موصولاً.

ـ قد يزورنا مركب.

قال:

ـ لا يزورنا أحد.. فالناس على علم بأنني لا أرحب بهم.

تمتمت: «قد يأتي بعض الغرباء عن طريق الصدفة».

كانت طريقته بالإمساك بها برهاناً على نفاد صبره.

ـ من الأفضل لك إبقاء الغرباء بعيداً عن هذا، إلا إذا كنت تسعين إلى الدعابة. إن الشرطة تهتم بمن هم على شاكلتك والصحافة أيضاً..

ابيضّ وجهها: «الصحافة؟»

ـ بالتأكيد.. أتعرفين ما الثمن الذي قد يدفعونه لقاء قصة عن الأسابيع التي أمضيناها معاً هنا.. أنا وأنت بمفردنا في جزيرة في الكاريبي؟

ـ لن يصدق أحد مثل هذه القصة! خاصة من شخص لم يسبق أن سمعوا به.

ـ آه! لقد سمعوا بي.. فلو كنت مولعة بالكتب كما تدعين لسمعت بي.. اسمي الروائي هو وليام رايدر.

فغرت ميرا فاها للحظات:

ـ لست.. ويليام.. رايدر.. لست ذلك؟ المؤلف الذي كتب قصة «جانا».

ـ وكل تلك المسرحيات، والأفلام.. أنت محقة!

ـ لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً.. أمر لا يصدق!

ـ لن أزعج نفسي بإثبات صحته.. فلا يهمني أن تصدقي أم لا تصدقي..

ابتلعت ريقها لأنها عرفت أنه غير كاذب.. مع ذلك وجدت صعوبة في الاستيعاب.

ـ لماذا لم تقل لي هذا؟

حدق إليها بعينين ضيقتين ثم أمسك بكتفيها ولكنه عاد فأبعدها عنه بوحشية:

ـ لم يبدُ لي الأمر مهماً.. أو له علاقة بما نحن فيه.

نمتمت بصوت مرتفع:

ـ ويليام رايدر..

لقد قرأت جميع مؤلفاته التي قرأها كل هواة المطالعة.. ولا شك أن ثورن أشهر كاتب في جميع أنحاء العالم.. كيف لم تعرف من هو؟ ما أغباها! لو اكتشفت الصحافة أنها معه.. لتمسكت بالخبر بأسنانها!

***

٧ ـ لا ينفع التحذير!

نظرت ميرا إلى وجه ثورن وهي تعض شفتها.. كانت ترى بريق الشر في عينيه الرماديتين.

سألت: «لماذا لم تستخدم اسمك الحقيقي؟»

ـ اسمي ويليام رايد هما اسمان حقيقيان ملحقان باسمي بالعمادة.. لم أكن قد بلغت العشرين عندما نشرت قصتي الأولى، ولأنني لم أكن واثقاً من نجاحها أردت التخفي وراء شيء.

ـ وهل نجحت القصة؟

ـ نجحت بشكل مدهش.. وهذا ما حال دون التأليف باسم آخر.

عبست ميرا لشيء آخر حيّرها:

ـ لماذا تختار العيش هنا ما دمت على هذه الشهرة؟

ـ اشتريت الجزيرة من رجل لم يحسّن فيها سوى إيصال الهاتف إليها.. فاستخدمتها للراحة والانزواء.

ـ لكن الأخوين سمولود قالا إنك فكرت في البيع؟

ـ يوماً ما سأبيعها إنما ليس في الوقت الراهن.

تحدثه:

ـ وليلة أمس؟ عرض الزواج.. أكان في سبيل خداعي؟

ـ ألا تعتقدين أنه جاء دوري؟

انتهت معاهدة الصلح الصغيرة التي ناقشا خلالها كتاباته.. ونظرت

www.elmanara.com

إليه ميرا ممتقعة اللون بسبب عقدة الذنب.

ـ حسناً.. أنا لا أنوي البقاء هنا لأخدمك! استعد رودا في أقرب فرصة إلا إذا كنت راغباً في الاعتناء بنفسك، سأوضب حقائبي.

أمسك بها يديرها صائحاً:

ـ أوه.. لا.. سيدتي! ستنفذين ما أطلبه منك وإلا لن تجرؤي على إظهار وجهك ثانية في لندن أو في أي مكان آخر من العالم.

برقت عيناها سخرية: أتهدد؟

رداً عليها شدّها إلى ذراعيه بقوة وعنف بحيث لم تستطع الخلاص.. رد الفعل الغاضب الذي أطلقته أصبح صمتاً وهو يجبرها على الإذعان له.. حاولت مقاومته ولكنه كان يمسك بها بدون رحمة، فارتجف جسمها بسبب قوة جسده.. انطلقت قشعريرة إلى عمودها الفقري ولم تعد تستطيع كبت أفكارها المتسارعة.. ولكنها انتزعت نفسها منه بجنون لأنها كادت تفقد صوابها.

تمتمت ساخطة ووجهها يكاد يحترق:

ـ لا تجرؤ على تكرار مثل هذا مرة أخرى!

ـ لن أكرره إذا نفذت تحذيري.. وإلا.. تعرفين ما ينتظرك!

في الأيام التالية كانت متأكدة أنها ستفقد عقلها.. وإذا كان العمل الذي كانت تقوم به لمصلحة الأخوين سمولود يزعجها، فهو لا يقارن بالانزعاج الذي تشعر به الآن.

كانت تستيقظ في السادسة من كل صباح وتبدأ بالعمل حتى وقت متأخر من اليوم.. عندما كانت تنظر أحياناً إلى المرآة، كانت ترى مخلوقة شعثاء الشعر.

لم يعد شعرها مرتباً ممشطاً بل أصبح خصلاً مجعدة وخلا وجهها حتى من أحمر الشفاه الذي كان سيذوب على أي حال أثناء العمل.. كان العرق يتسلل إلى جسدها وهي تطبخ أو ترتب مساكب الزهور.

مع ذلك، سرعان ما أصبحت غير مكترثة بمظهرها فلديها منزل كبير تعتني به، وهي غير قادرة على الاعتناء به وبنفسها! أحياناً كانت تنظر إلى ما يجري وكأنه حلم.. وكانت تشعر بأنها ستستيقظ يوماً فتجد أنها كانت تحلم.. لكنها لم تستيقظ قط. كان ثورن مستبداً لا يلين وراح يتذمر طوال الوقت.. وعندما قالت له إنها لم تمسح أرض منزل قط لم يصدقها ثم سخر منها عندما اعترفت أنها كانت تستأجر امرأة لتنظف لها شقتها يومياً مدة ساعتين.

قال: «من الأفضل أن تقومي بواجبك، لأنك الخادمة هنا. لا يزعجني أبداً إذا نمت أم لم تنامي.. ولكنني لا أقبل بمطبخ متسخ!»

ثم طالب بتناول الفطور في وقت ما كانت تسمع بوجوده.. صاحت بعد يومين عندما نعتها بالكسولة:

ـ ما الذي يمنعك من طهو طعامك بنفسك؟

رد بحدة: أنا لا أطهو فطوري لأن لدي أعمالاً أخرى.. وإن كنت أنت كسولة بحيث لم تنهضي من الفراش في الوقت المطلوب فسآتي غداً لأساعدك على هذا.

وهذا ما حسم الأمر.. فمنذ ذلك الصباح وميرا تنهض في السادسة لأنها لا تطيق فكرة أن تمتد يداه إليها مرة أخرى.

كان ثورن يكرهها والأخوان سمولود تخليا عنها وهما بلا شك خائفان من تهديد ثورن الذي هدّد بتشويه صورتهما في السوق. باتت الآن بلا صديق!

استعاد ثورن خاتمه وهذا ما زادها إحباطاً واكتئاباً.. كان قد ضحك وقال إنها أقصر خطوبة في التاريخ.. مع ذلك شعرت أن وراء ملاحظته الساخرة غضباً متفاقماً.

ما زالت تشعر بالصدمة بسبب كونه كاتباً مشهوراً، فما إن عرفت من هو حتى تذكرت أنها رأت يوماً صورة ويليام رايدر.. راحت تفكر في

الرواية التي يؤلفها حالياً . . لكنها لم تجرؤ على طرح أي سؤال بشأنها .

حدث هذا بعدما حملت إليه القهوة في إحدى الأمسيات . . كانت واقفة قرب نافذة المطبخ تحتسي قهوتها والتعاسة تغمرها فرأت مركباً ولأنها كانت تفكر بثورن مرّ وقت قبل أن تنتبه للأمر . . لم يكن قريباً من الشاطىء ولكن أصحابه قد يرونها إن لوّحت لهم بيدها . . هرعت إلى الخارج بتهور غير آبهة بتهديدات ثورن، ولكنها ويا لسوء الحظ أخطأت الطاولة وهي تضع الفنجان عليها فوقع وتحطم . . لا شك أن الصوت أزعج ثورن لأنه سرعان ما أصبح وراءها .

تمكنت من التلويح مرة واحدة قبل أن تطبق ذراعاه عليها .

قال ساخطاً : «ماذا تعتقدين أنك فاعلة؟»

شهقت وحاولت المكافحة بجنون :

ـ أحاول لفت اهتمام أصحاب المركب!

ضحك ضحكة فظة واشتدت ذراعاه حولها حتى عجزت عن تحريك طرف واحد من أطرافها .

قال ساخراً : «من يراقبنا يعتقد أننا عاشقان أو زوجان في شهر العسل . . ولن يشجعه هذا على التدخل» .

التقطها عن الأرض وحملها إلى الداخل .

أخذت تهذر كالأطفال عندما أنزلها :

ـ أنظن أنك ماكر؟ حسناً . . أنت مخطىء، أنت تحتجزني وتعاملني كخادمة . . ولكنك لن تستطيع القيام بأكثر من هذا فأنت لا تؤثر فيّ أبداً! ربما صنعت لنفسك اسماً . . لكن قبل هذا ماذا كنت؟ لا شيء!

ـ إذن ترين أنني غير صالح لألعق حذاءك؟

بدا وجهه صارماً وبدت عيناه سوداوين من الغضب . عاد غضبه بقوة وكان عليها أن تنتبه لما تقول ولكن عينيها كانتا مغشيتين بدموع الغضب . . كان صوته الغاضب في أذنيها ليس أكثر من ضباب . تدفقت كلمات

الاحتقار من بين شفتيها، ولم تبدُ قادرة على التوقف . . هي بلا شك إما تحب ثورن . . وإمّا تكرهه! يا الله! لا تدعني عرضة لخطر الاحتمال الأول! ولكن كيف تنحيه جانباً وهي لا تنفك عن التفكير فيه أبداً؟ . . ففي الليل لا يفارق خيالها وهذا ما يؤرقها . . انفجرت هذه المعرفة في رأسها وكأنه انهيار ثلجي صدمها إلى درجة الهستيريا .

تأوهت صائحة :

ـ دعني أرحل . . أنت لا تليق بي أو بلمسي!

ربما هذه النيران الخضراء التي كانت تشتعل في عينيها هي ما فجرت ما تبقى من سيطرة ثورن . . وقد خرجت من عقالها ما إن التفت ذراعاه لتهددا بانتزع آخر أنفاس من جسدها .

ـ قبل أن أنتهي منك . . ستزحفين على وجهك .

شدها بقسوة وقال ساخراً :

ـ والآن . . اصرخي طلباً للرحمة .

أدركت ميرا أن عليها ادّخار أنفاسها لما هو أهم بكثير من الصراخ وقالت :

ـ تكون مجنوناً إن آمنت أنك ستنجو بهذا!

ـ حذرتك مراراً وتكراراً . .

صاحت متألمة : «طالما حذرتني . . » .

ـ لكنك رفضت الاعتراف بمدى خطورتي .

حاولت تحرير يدها لتضربه ولكنه أمسكها بقوة . . فهمست بغضب :

ـ إنك حثالة .

ـ حسناً . . ستظهر السيدة المهذبة إلى العلن بكل تأكيد! لن تحرمي نكرة من امتلاك شخص ما، ولو لمرة في حياته . . أليس كذلك؟ خاصة وأنت دائماً كريمة سخية مع رجال آخرين .

امتزج الخوف بالنار التي بدأت تنطلق في شرايينها، وشعرت بقسوته

الخالية من الرحمة.. إنه الرجل الأول الذي يجعلها تشعر بالعجز والأنوثة..

راحت تقاومه مقاومة باءت بالفشل.. أوقف ثورن كل مقاومتها لأنه شدها إليه بقبضة من فولاذ..

تسارعت أنفاس ميرا في أذنيها.. وراح قلبها يهدد بالوثوب من بين جنباتها.. وكان الشعور الغريب الذي يستحوذ عليها كلما كانت قربه تياراً قوياً اجتاح كيانها كله.. آه! كيف لها أن تحارب مشاعرها الغادرة؟ ولكن إن عجزت عن مقاومته فكيف تتمكن من مواجهة نفسها مرة أخرى؟

أخذت تتلوى مذعورة ولكنها كانت كلما تلوّت كلما شعرت أن ثورن يتنعم بسعادة متوحشة.. أخيراً استطاع تثبيتها إلى الحائط فراحت تحادث نفسها: يا إلهي لم أشعر قط بهذا المزيج من الخوف والشوق.. رفضت أطرافها الانصياع إلى التعليمات التي كان يطلقها عقلها تباعاً ليساعدها في مقاومة الخطر الرهيب الذي تتعرض له.. إنها معركة بينها وبينه ولكن ويا للأسف هي ليست نداً له.

أخيراً لم تعد قادرة على مواجهة تهجماته.. وفجأة غاب كل شيء عنها وغرقت في ظلام الغيبوبة..

لم تعرف كم بقيت فاقدة الوعي.. ولكنها عندما أفاقت وجدت أنها في غرفتها..

استلقت دقائق حاولت خلالها تذكر ما جرى قبل أن تفقد وعيها.. وشعرت بالخجل.. لقد آمنت أنها تكره ثورن سواذلنغ ولكنها الآن تعرف أنها تحبه.. آمنت أنها باردة غير قادرة على أن تحب أو تستجيب لأحد.. أما الآن وقد عرفت العكس فقد شعرت بالفرح والراحة.. المشكلة من الأساس كانت أنها امرأة لا تستجيب إلا إلى شخص محدد.. وليس لدى كل امرأة مثل هذه المشكلة. هذا إذا كان بالإمكان وصفها بالمشكلة..

نهضت ميرا بعد السادسة بقليل وهي لا تشعر بانقباض كالمعتاد.

عليها الآن أن تجد ثورن لتعتذر منه عن كل شيء.. فهو بلا شك يحبها قليلاً وإلا ما اصطحبها إلى هنا أصلاً. وربما يحبها كما تحبه، وينتظر إشارة منها قبل أن يعترف لها بهذا.. وتراقص قلبها سعادة.

بعد الحمام ارتدت ثيابها بسرعة، سروالاً قطنياً وقميصاً.. اليوم هي لا تشعر بالحاجة إلى ماكياج ليشع وجهها.. فعيناها الخضراوان متلألئتان وشعرها كتلة ألوان وثغرها دافئ مكتنز..

في الصباح، تصنع عادة إبريق قهوة كان يحتسيه ثورن وهو يراقبها تطهو فطوره.. لكن أملها خاب عندما لم تجده.. ما إن غلت القهوة حتى سمعته يدخل من غرفة الطعام، فحملت القهوة له وابتسمت له بصدق:

- صباح الخير.

جلس إلى الطاولة دون أن يوليها أقل اهتمام، فقد ظلّ بصره شاخصاً إلى المجلة وكأنه لا يعترف بوجودها.

نظرت إليه بلهفة: إنه صباح جميل.

تجاهل ملاحظتها فشعرت بالجرح.

قال بكلمات باترة: أرجو أن تحضري لي الفطور في أسرع وقت ممكن.. فأمامي عمل كثير.

ابتلعت ريقها: بالتأكيد.

نظرت إليه بتردد قبل العودة إلى المطبخ، كيف لها أن تصل إلى قلبه؟ ولكن أتراها ضيّعت الفرصة إلى الأبد؟

سحبت نفساً عميقاً.. الأفضل لها أن تستوعب هذا بشكل مناسب، لقد اعتاد ثورن عليها وهي غاضبة متذمرة.. ولقد غشته وكذبت عليه، لذا لن تتوقع منه أن يصدق أنها تغيرت بين ليلة وضحاها. عليها أن تثبت هذا التغيير ليثق بها من جديد..

راحت تطهو الفطور وقد ساعدها التركيز على تنحيته عن أفكارها.. حضرت له أربع شرائح مع النقانق والطماطم ثم قلت له بيضتين، وضعت

الجميع على صينية وحملتها إليه.

قال باختصار: «شكراً».

ترددت قليلاً فهل سيطلب منها الانضمام إليه؟.. ولكنه عندما نظر إليها بدت عيناه الرماديتين متعبتين، ولم يكن فيهما دعوة من أي نوع.. كان وجهه كقناع حديدي.

تمتمت وهي تفكر في عذر للعودة إلى هنا:

ـ سأحضر المزيد من القهوة.

ولكنه قال وهو يشير إلى فنجانه:

ـ لدي ما يكفي هنا.

ابتسمت ابتسامة ملؤها التوتر: إذا كان هذا ما تريد.

في المطبخ حاولت تناول فطورها ولكنها لم تشعر برغبة في الطعام وهذا غريب فقبل اليوم وبسبب الغضب الذي كان يجيش في صدرها وبسبب حياة الذل انفتحت شهيتها للطعام.. أما اليوم فالعكس هو ما حدث.. فالمؤكد أنه غاضب منها وأنه لن يسامحها بسهولة.. عندما استوعبت الحقيقة، مسحت دمعة من عينها ولكن عليها التحلي بالصبر فالأمر بحاجة إلى وقت.

وجدت قماشاً قطنياً مبهرجاً في مخزن رودا.. فتساءلت عما إذا كانت قادرة على خياطة ستائر جديدة لغرفة الجلوس.

عندما لم يترك مكتبه لتناول الغداء، وضعت بعض الحساء والسندويشات على صينية وحملتها إليه..

نادى من الداخل: «أدخل».

ما إن شاهدها تحمله حتى عبس:

ـ لا أدري إن كان لدي وقت للتوقف.

ـ ستعمل بشكل أفضل إذا تناولت شيئاً.

أكمل باختصار: شكراً.. في المرة القادمة عندما أريد شيئاً أخرج

بنفسي.

نظرت إليه من فوق الصينية، وتنهدت: «أنا آسفة».

نظر إليها نظرة طويلة، وتأمل مفاتنها، ثم أدرك ما يفعل فأشاح بصره وقال بصوت فظ:

ـ لا داعي للاعتذار.

اتجهت إلى الباب، فلا جدوى من مجادلته وهو في مثل هذا المزاج السيء. ولكنه أوقفها:

ـ مهلك لحظة.. أريد أن أكلمك.

قالت ببرود:

ـ ما كنت لأذكر الموضوع مرة أخرى، لكننا لم نتباحث أمر اتفاقك المالي مع الأخوين سمولود.

نظرت إليه ساخطة.. فبعدما اكتشفت ما تشعر به تجاهه باتت خجولة مما فعلت:

ـ قلت لك معظم ما يجب.

ـ لا، لم تقولي كل شيء..

نظرت إلى الأرض فقد كرهت أن ترى الازدراء في عينيه.

ـ حسناً.. لو نجحت في مسعاي لأعفياني من تسديد أقساط الشقة ولأعطياني بضعة آلاف أخرى.. ولو فشلت لدفعا لي أجرة عودتي ولأعفياني من أقساط الشقة حتى آخر السنة.

ـ إنه عرض يصعب رفضه.. ففي الحالتين لن تخسري شيئاً.

ابتلعت ريقها ونظرت إليه بسرعة. أرادت أن تعترف له أنها كانت يائسة ولهذا انجرفت إلى مثل هذه المغامرة..

قسوة وجهه منعتها من أي توسل.

ـ شيء آخر.. كيف كنت ستتخلصين مني في النهاية؟ سبق أن سألتك ولكنك لم تجيبي.

بدا على وجهها الإرهاق:

- لا أدري.. فلم أفكر في الأمر.

قال ساخراً: إنه نقص في الاهتمام المطلوب بالتفاصيل، كان سيثبت فشلك.. قبل أن تبدأي في محاولتك القادمة للخداع..

قاطعته: «سبق أن قلت لك إنني لن أفعل..»!

لكنه تجاهلها بازدراء:

- قبل أن تفعلي تعلمي ألا تتركي شيئاً للصدف.

- أهذه هي طريقتك في التأليف؟ لا تتغاضى عن أي شيء منذ البداية!

- لا.. عندما أبدأ، أكون جاهلاً كل التفاصيل. لكن الأمور تبدأ بأخذ موقعها ما إن أنخرط بالقصة، أما أنت فلا تستطيعين تحمل مثل هذه المخاطرة.. فماذا كنت ستفعلين لو وجدت نفسك فجأة متزوجة بي، مثلاً؟

تورد وجهها بشدة: «آه! كنت سأطلب الطلاق».

تابع دونما رحمة: لو لعبت أوراقك بشكل صحيح، ولولا ارتكابك كل تلك الأخطاء..

- أخـ.. طاء؟

- مثل نسيانك الاتصال بتالبوت سمولود حتى اضطر إلى الاتصال بك... لتمكنت من بناء عش جميل بقبولك العيش معي.. فأنا رجل ثري حقاً.. ميرا.. كنت ستكسبين كثيراً.

صاحت ساخطة: «ما كنت لأستطيع أن أفعل هذا!».

ولكنها الآن تفكر على نحو مختلف فهي تتمنى فعلاً العيش معه مهما كان المكان الذي يسكنه.

قاطع أفكارها برقة خطيرة:

- أتظنين أنني كنت سأطلب يدك؟ أعترف أنني فكرت في إقامة علاقة معك.. أما الزواج فلم يرد قط في فكري!

عضت شفتها ببؤس، ماذا تفهم الآن؟ إنه يوضح أكثر فأكثر أن لا دور لها في مستقبله، وأنه يكرهها. ها هي رغبة الانتقام تدفعه أكثر فأكثر إلى إيذائها.

ردت بصوت هامس:

- أعرف هذا.. ولكنك لو كنت فعلاً تريد الزواج لما مضيت في الأمر بل لكنت اعترفت لك بالحقيقة قبل ذلك.

رد ساخراً: «حسناً.. لن نعرف حقيقة كلامك أبداً.. صحيح؟»

لا تطيق رؤيته غاضباً.. ابتلعت ريقها وهزت رأسها إيجاباً، وبعدما تمكنت من جمع شجاعتها قليلاً قالت إنها تريد أن تسبح.

لوّح بيده صائحاً:

- اذهبي، طالما لا تنسين أن لديك عملاً تقومين به.

ردت بهدوء: «لن أنسى.. ولن أغيب أكثر من ساعة».

- كوني حذرة.

اعتزت بهاتين الكلمتين ولو أنهما قيلتا غصباً عنه.. ارتدت ملابس السباحة وحملت غداءها إلى الشاطىء، وهناك سبحت ثم أكلت السندويتش وأنهت طعامها بتفاحة.. بعدما انتهت من تناول الطعام جلست تحت ظل شجرة لتسترخي قليلاً في الظل.. ولكن الهواء العليل والسباحة جعلاها تغط في نوم عميق لم تستيقظ منه إلا وثورن يهزها.

كان في صوته نوع من التلهف: «ميرا! هل أنت بخير؟»

ابتلعت ريقها بصعوبة.. ثم شهقت:

- آسفة.. لم أقصد أن أنام.

قال بصوت فظ:

- لا يهم.. وجدتك الآن.. خرجت من المكتبة أريد فنجاناً من الشاي فلمّا لم أجدك اعتقدت أن مكروهاً أصابك.

قالت بغموض:

ـ لم أنم كثيراً ليلة أمس.

لم تدر ماذا تقول.. وراحت تنظر إلى عينيه بشوق.

كادت تنتفض عندما رأت نظرة الغضب في عينيه وأحست كأنما هذا الغضب يسلخ جلدها.. نهضت وأسرعت ترتدي روبها الأبيض القطني. وقالت بسرعة:

ـ سأعد لك الشاي في غضون دقائق.

راقبها عابساً وهي تلتقط الصحون الفارغة وزجاجة المرطبات.

سألت: «هل ستتوجه مباشرة إلى المنزل أم تفضل التنزه أولاً؟»

ـ سأتمشى على الشاطىء فيما تعدين الشاي.

عندما كان الشاي جاهزاً وموضوعاً على طاولة المطبخ.. تناول فنجانه وحمله إلى مكتبته شاكراً إياها بسرعة.. نظرت ميرا إليه بأسى وهو يبتعد... أملت أن يجلس ويتناول الشاي معها، ولكن لا جدوى من استعجال الأمور، فعليها أن تكون صبورة حتى يتعلم الثقة بها من جديد.

ارتدت ملابسها ووضعت زينتها باعتناء وهذا ما كانت تتجاهله مؤخراً.. أرادت أن تبدو جذابة لأنها قررت المقاومة ليقبل بوجودها في حياته.

أعدت بجرأة مكاناً لها مقابل ثورن على مائدة العشاء.. قد يأمرها بالمغادرة لكنها لا تظنه سيكون عدوانياً إلى هذا الحد.. فحتى لو امتنع عن مكالمتها تفضل البقاء معه على الجلوس بمفردها في المطبخ.

كانت عينا ثورن باردتين وهما تنظران إلى شكلها النحيل في فستانها الأبيض الخفيف. ولكنه لم يأمرها بالخروج، بل بدأ بتناول الحساء.. لاحظت أنه لم يحاول أن يمسك لها كرسياً..

سألته بعدما أزعجها الصمت:

ـ هل أمضيت يوماً ممتعاً؟

لم يبدُ راغباً في الحديث وقال: هكذا وهكذا!

تابعت السؤال بعناد:

ـ وهل تطبع المخطوطة بنفسك؟

هز كتفيه:

ـ عندما أكون هنا يصبح الأمر سهلاً.

ـ وعندما لا تكون هنا.. أين تعيش؟ لم تخبرني.

ـ لدي شقة في نيويورك..

تردد قليلاً، ثم أردف:

ـ أنا أسافر كثيراً، لكن عند الضرورة قد أقيم ستة أشهر في مكان واحد.

كتمت ميرا أنفاسها حتى أدركت أنه لا يقول لها شيئاً مهماً.. إنه يصف حياته العملية التي تشبه حياة الكثير من المؤلفين الناجحين.

ابتسمت: لقد قرأت الكثير من كتبك.. خاصة ذلك الذي كان مسرحه القاهرة.. شعرت أنني موجودة فعلاً هناك.

ـ حقاً؟

ألمحت لهجته وسؤاله غير المبالي إلى أنه فقد الاهتمام بمثل هذه الملاحظات الساذجة. عندما تلاقت عيناها بعينيه الفولاذيتين خبت الابتسامة على شفتيها.

ـ على أي حال.. أعرف أنها كانت جيدة.

ثم سألها سؤالاً صدمها.. سؤالاً لم تتوقعه..

سأل بشكل عفوي ظاهرياً:

ـ كم أمضيت وأنت مخطوبة لبيري غريتركس؟

***

٨ ـ فات وقت الاعتذار

هل أراد ثورن أن يعاقب ميرا لأنها طرحت أسئلة عديدة عليه؟

زفرت ميرا نفساً كانت تكتمه بألم. الواضح أنه يرى تدخلها بأشياء تخصه أمر لا يغتفر.. ولكنها لم تطرح عليه أسئلة شخصية بل أسئلة عامة.

وضعت ميرا شوكتها من يدها بحذر.. وفكرت أن لا مانع عندها من التحدث بالأمر فليس لديها ما تخفيه.. ولكن كيف تشرح لثورن مدى فراغ خطوبتها بدون أن تدين نفسها أكثر في عينيه؟

قررت أن يكون ردها مختصراً: بضعة أشهر.

لكن الرد لم يرضه.. فتابع الضغط وكأنما لديه سلسلة لا تنتهي من الأسئلة:

ـ وهل استمتعت بالخطوبة الطويلة؟

لم يستمتع بيري بها، بل أراد الزواج بها فوراً.. وجدت نفسها ترد على ثورن كما ردت على بيري.

ـ لم أشعر أن هناك حاجة للاستعجال.

بدأ القول: «ما يحيرني...».

ثم صمت.. وتمتم:

ـ لا يهم.. ماذا حدث إذن؟

في هذه المرة كان الرد أسهل:

ـ تغير وضعي الاجتماعي.. وتغير بيري معه، وقرر إلغاء كل شيء.. أعتقد أن ذلك تم تحت ضغط من والديه.

ـ ألم تعتقدي أنه يستحق المقاتلة للاحتفاظ به؟

اعترفت:

ـ لم تسمح كرامتي.. وأعتقد أنني كنت غاضبة بحيث لم أفكر فيه.

ـ أتعنين أنك كنت على استعداد لاسترجاعه؟

ـ لا.. أنا لا أحبه.. ولم أكن أؤمن بالحب.. لكنني غيرت رأيي بالحب فيما بعد.

ـ منذ متى؟

آلمتها السخرية الكامنة في صوته لذا لم تجرؤ على كشف نفسها لئلا يهزأ بها..

ردت بحذر:

ـ منذ جئت إلى هنا على ما أعتقد.. أظن أن جزيرتك علمتني قيماً جديدة، قبل أن أدرك.. ثورن.

صمتت قليلاً ثم أردفت متلعثمة:

ـ عندما اكتشفت ما كنت أنوي القيام به، رأيت نفسي بصورة أخرى..

رد وتقطيبة سوداء تعلو وجهه:

ـ وفري عليّ سماع مثل هذا الكلام.. كنت أفضل أن تبقي على أنانيتك وفجورك على التظاهر بأنك أصبحت امرأة مختلفة.. فالناس لا يتغيرون بين ليلة وضحاها ميرا.. فلا تطلبي مني تصديق الحماقات البلهاء التي تهذرين بها الآن!

وقفت محبطة ولئلا تجهش بالبكاء أمامه هرعت إلى المطبخ.

أدهشها أن يلحق ثورن بها:

ـ لن أتناول الحلوى، إذا كان هذا لا يزعجك.. سأكتفي بالقهوة التي

سأتناولها في مكتبتي.

قالت باندفاع متهور:

- ألم تعمل ما فيه الكفاية اليوم؟ تبدو متعباً!

نسيت وهي ترتد لتواجهه أن وجهها مغرورق بالدموع..

التوى فمه بتسلية متجهمة، وقال ساخراً:

- قلقة عليّ؟ يجب أن أعترف أنك امرأة لجوج. لقد أهملت عملي في الماضي بضعة أسابيع.. ولن يضيرني أن أعمل الآن بضع ساعات إضافية.

امتدت الأمسية طويلة فارغة وبدت لها ليلة رائعة للجلوس في غرفة الجلوس فقط.. ولكنها عادت فقررت الخروج إلى الشاطىء للتنزه وراحت تتبع آثار أقدام ثورن إلى حيث ذهب في وقت باكر من اليوم.. لم تستطع مماثلة طول خطواته ولكن آثار الخطوات على الرمال تدل على أن صاحبها يسير بلا هوادة وأدهشها أن تجد أنه سار ميلاً قبل أن يعود، ولا شك أنه كان يسير غاضباً لأنه لم يغب عن المنزل أكثر من عشرين دقيقة.

جلست فوق صخرة مسطحة وأرجعت خصلاتها الذهبية الحمراء إلى الوراء.. كان الجمال يحدق بها من كل حدب وصوب. إنه أمر غريب فما إن وقعت في حب ثورن حتى شعرت بالتعلق بجزيرته.. تعرف الآن أنها قادرة على الإقامة هنا أسابيع وأسابيع بدون أن تسأم.. بل يمكنها أن تعيش هنا إن اضطرت.. مع ثورن ومع بضعة كتب واسطوانات للتسلية حين يكون مشغولاً.. أما معظم الوقت فستقضيه للاعتناء به وبأولادهما.. فجأة، أوقفت مثل هذه الأفكار البلهاء.. ودست أصابع قدميها المتوترة في الصخرة.. ما الذي تفكر فيه بحق السماء!

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة حين عادت، مع ذلك لم تجد أثراً لثورن.. استغربت لماذا لم يخرج ليبحث عنها خشية أن تحاول الهرب مجدداً.. بعد ساعة قصدت غرفتها. وفي الطريق إلى هناك ألقت نظرة على المكتبة فلم تسمع صوتاً أو تشعر بحركة.

كونها تحبه كان كل ما هو مهم لها.

أحست بالتوتر فدخلت إلى حوض الاستحمام وجلست في مياهه الدافئة، بعد ذلك ارتدت روبها الحريري وتركت الحمام.. ثم سمعته يقطع الردهة العليا قاصداً غرفته المجاورة لغرفتها فلم تستطع إلا أن تقف.

عندما كان يقترب شعرت بمعدتها تتقلص ولكنه تابع السير غير عابئ بها..

تمتمت وفي صوتها يأس: «ثورن؟»

توقف في مكانه.. ثم ارتدّ إليها جامد الوجه فشعرت ميرا بالألم بسبب هذا النبذ الذي تراه واضحاً على وجهه.. راحت عيناه تجولان في وجهها بكآبة.. ألا يعني استسلامها وإذلالها وفقدانها لكبريائها، شيئاً له أكثر من نصر وانتقام زائلين؟ وأخذ ينظر إليها دونما عطف.

رد ببرود: «نعم؟»

غضت طرفها لأنها لم تكن قادرة على تحمل بريق التحدي الكامن في عينيه القاتمتين..

تمتمت: كنت أتساءل ما إذا كنت غاضباً مني.

رد متجهماً: «ماذا تريدين مني؟»

أحست ميرا أنها أصبحت بيضاء من فرط الشحوب.. وتمنت لو تملك قوة الإرادة لتبتعد عنه.. لكن «الكيمياء» المتفاعلة بقوة بينهما أمسكت بخناقها ومنعتها من الحراك.. أما ثورن فكان يراقبها صامتاً ثم ضاقت عيناه.

قالت بصوت مرتجف:

- لا أريد شيئاً منك غير ثقتك واحترامك.. أعرف أن عليّ أن أستحق هذه الصفات قبل أن تمنحني إياها.. وفي هذه الأثناء، ولأنني تعمدت خداعك أقدّم لك اعتذاري وأنا على استعداد لدفع الثمن الذي تريد.

رد ساخراً: تحاولين الآن جعل نفسك ملاك التضحية.

لم يكن هذا هو الانطباع الذي أملت أن تتركه في نفسه.. وكادت تشرح بالضبط ما تشعر به.. لكن يصعب على المرء أن يعرّي ما في نفسه بدون أن يشجعه الطرف الآخر.

حاولت ممازحته:

ـ لست ملاكاً بالتأكيد ثورن.. وهذا ما تعرفه.

مد يده بخفة ليلمس شعرها الحريري فاتسعت عيناها.. ثم همست قبل أن تمنع نفسها:

ـ أحتاج إليك! لا أدري ما يحدث لي.

تأوه: «ميرا».

وشدها بين ذراعيه، أما هي فأمسكت به بقوة.

تمتم:

ـ يا إلهي! أتعرفين ماذا تفعلين؟

كانت آهته الدليل على أنه يشاركها مشاعرها.

ـ ولكني لا أستطيع، لا أستطيع..

ثم أبعدها عنه وابتعد لا يلوي على شيء.. أما هي فانهمرت دموعها دونما رادع.

عندما استيقظت في الصباح كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة.. الليلة الماضية لم تذق طعم النوم حتى وقت متأخر فقد كان الألم أقوى من أن يتركها قادرة على النوم.. لقد فكرت وفكرت طوال الليل في الوسيلة التي تستطيع من خلالها غرس الثقة بها بنفسه.. رأت أمامها أياماً طويلة عسيرة.. عليها فيها إثبات التغيير الذي طرأ على حياتها. من الآن فصاعداً ستنشغل بالأعمال المنزلية وتبتعد عنه.

اعتقدت أن ثورن في مكتبته فلم تدخل لتكلمه خشية أن تقاطع حبل أفكاره. كان فنجان قهوته مغسولاً في المغسلة مع طبق طعام فارغ وهذا يشير إلى أنه أعدّ فطوره بنفسه وبدل أن تزعجه بتقديم القهوة التي قد لا

يرغب فيها قررت طهو غداء دسم.

كانت تنهي ترتيب غرفة الجلوس حين سمعت صوتاً فدنت من النافذة، ونظرت إلى ثورن الذي كان يسير على الممر وبرفقته كارمن بريغز وامرأة ورجل آخرين... كان يساعد كارمن على الصعود، وكانت تضحك وهي تتعلق بذراعه أما الآخران فشاطراهما الضحك بسبب شيء قاله ثورن.. رأته هو والرجل الآخر يحملان حقيبتين.. عندئذ هبطت معنويات ميرا إلى الحضيض.. فلدى ثورن زوّار ينوون البقاء عنده.

ضمت ذراعيها كأنما تحاول إبعاد الألم الذي يهدد باجتياحها.. لم يذكر أن أحداً آتٍ ليقيم هنا.. وطالما أكّد أنه لا يملك الوقت لاستقبال الزائرين.. ولكن انظروا ها هي كارمن بريغز تصل واثقة بنفسها، وكأنما اتفق معها على الأمر سابقاً!.. دخل الجميع إلى غرفة الجلوس وهم في هرج ومرج وبدا ثورن مستمتعاً أيضاً إذ قال ضاحكاً:

ـ آه.. ها هي ميرا! أما قلت لك عزيزتي إنك لن تضطري للعناية بنفسك.. عندما سافرت رودا فجأة قبلت ميرا التي لم يعد لديها عمل، وهذا حال العارضات بين العرض والآخر، أن تحلّ محل رودا بطريقة ما..

بذلت ميرا جهدها لابتلاع الشهقة أما كارمن التي قطبت فنظرت إليها نظرة ملؤها الريبة:

ـ لكن العارضات لا يدرن المنازل عادة حبيبي.

نظر ثورن إلى ميرا:

ـ لكنها قبلت.. فالشحاذ لا يختار وهذا قول ينطبق علينا معاً. أنا غارق بتأليف قصتي الأخيرة وسيد يشد شعره ليحصل على آخر فصل من روايتي الأخيرة.. وليس لدي الوقت للبحث عن مدبرة منزل.

سألت كارمن: «وحتام تريد استخدامها؟»

رد ببطء: «مؤقتاً مدة شهر».

كادت الحيرة والسخط يغرقان ميرا خاصة عندما اتهمت كارمن متذمرة:

- كما تقول.. طالما لا تتوقع مني أن أساعدها أو أن آخذ محلها إن ضجرت.. ودارسي أيضاً ممن لا يجيدون الأعمال المنزلية.. أليس كذلك حبيبتي؟

وارتدت إلى المرأة الأخرى التي هزت رأسها بدون أن تفهم شيئاً أما زوجها فدنا من النافذة وأبدى إعجابه بالمنظر.

فكرت ميرا بيأس: لا يعقل أن أتعرض إلى هذا كله! لماذا يفعل ثورن بي هذا؟ لا بد من وجود تفسير! رأت أمامها عدة تفاسير لم يعجبها أي واحد منها.. ولكنها في هذه اللحظات كانت يائسة يأساً جعلها عاجزة عن الاعتراض.. عندما قال ثورن ببرود:

- هلا قدمت لنا القهوة ميرا قبل أن تبدأي بتحضير الغداء؟

نظرت إليه مباشرة وسألت بجرأة:

- هل لي أن أكلمك على انفراد ثورن؟ الأمر يتعلق بالمؤن فقط.

وافق بدون تفكير، فتبعها إلى الخارج بعدما طلب إلى الآخرين التصرف وكأن المنزل منزلهم.

في المطبخ أغلقت الباب خلفهما بعناية فسألها بقسوة:

- ما الذي يزعجك الآن؟

وجدت ميرا صعوبة في التكلم ببرود:

- لماذا جلبت الآنسة بريغز إلى هنا؟

نظر إليها متفرساً ومع ذلك لم تستطع رؤية ماذا وراء عينيه.. الواضح أنه لا يحب أن يُسأل عن شيء وأنه غير معتاد على تقديم حساب لأحد.. مع ذلك لم تستطع منع نفسها من الضغط للحصول على الرد. فكررت: «ثورن؟»

- شاركت كارمن مرة في إحدى مسرحياتي، وقد تشارك في الأخيرة.

ابتلعت ميرا ريقها وحاولت طريقاً آخر:

- ظننتك لا تشجع الناس على المجيء إلى هنا؟

- كارمن صديقتي.

- ولماذا قلت لها إنني مدبرة منزلك؟

- مؤقتاً!

- ثورن.. أتتوقع مني أن أطهو وأنظف لضيوفك؟ قلت إن عليّ الاعتناء بك ووافقت ولكنك لم تذكر شيئاً عن خدمة غيرك.

- وهل لديك اعتراض؟ أتعتقدين أنك عملت ما فيه الكفاية لتسديد دينك؟

ابتلعت ميرا شيئاً كأن حنجرتها تؤلمها واسودت عيناها الخضراوان من الألم.. وراحت تحارب الغثيان الذي يوشك أن يمسك بخناقها.

- لا.. لكنني ظننت أن الدين بيني وبينك.

- ألا تظنين أن من الأفضل أن يبقى هكذا؟ كارمن تقبل وجودك كمدبرة منزل.. في هذا العصر تعمل النساء على اختلاف مستوياتهن أعمالاً مختلفة خاصة في أمكنة كالكاريبي.. في هذه الأيام قد تعمل ابنة دوق مدبرة منزل.

لماذا تشعر أنه لا يركز على ما يقول؟

- لا أرى ما علاقة هذا بي.. لماذا لا تدعني وشأني ثورن؟ فأنا واثقة أنك والآنسة بريغز تفضلان الانفراد والوحدة.

إن ما تقترحه أمر يعرف أنها لا تجرؤ على وصفه في كلمات..

قال: لن تذهبي إلى أي مكان حتى...

ولكنه أطبق أسنانه قبل أن يتم الجملة، فتساءلت ميرا عما كان ينوي أن يقول.

أردف بحدة: «حتى أقول أنا العكس.. ولن يكون هذا قبل فترة طويلة».

- ألن تغير رأيك؟

- لا.. يناسبني أن يكون عندي شخص قادر على العناية بضيوفي، بينما أنا مشغول.

استسلمت مخدرة الإحساس: «كما تشاء».

قال: «إن نظرت إلى المسألة من وجهة نظرك فسترين أن رحيلك عن الجزيرة الآن لن يرتدّ عليك إلا شائعات قد تنتقل عبر الأطلسي».

- لم أعد آبه بالقال والقيل بعد الآن.. لكنك على حق في الأمر الآخر.. فما زلت مدينة لك.. لذا سأعتني بضيوفك بأفضل طريقة ممكنة..

أثارت لهجتها المذعنة شكوكه، فقال متجهماً:

- دون أي خداع؟

- تدربت مدة أسبوعين.. وبدأت أحب التدبير المنزلي.

رد ساخراً: «إنما أرجو ألا تدمني عليه وإلا لن تتوقي إلى الرحيل».

أحست بالارتباك: «لا تخشى شيئاً كهذا واعلم أنني لن أقول أمام كارمن ما يزعجك».

هز كتفيه: افعلي ما شئت.

وكان يقصد أنه لن يزعجه أو يزعج كارمن شيئاً تافهاً كوجود امرأة أخرى..

تنهدت: «لا فائدة من ذلك.. أعتقد أن من الأفضل لي أن أكون مجرد موظفة تحاول تحسين أدائها بدل أن أكون مصدر إزعاج لفتاتك».

قال يمدحها: «طهوك يتحسن.. قلت إنك تريدين الكلام عن المؤن، أكان ذلك عذراً؟»

- نعم كان عذراً.

لانت عيناه ولم يوبخها:

- اعلميني متى احتجنا إلى مؤونة.

- سأعلمك.

- عظيم.. سأتركك لعملك إذن.. ولكن توقفي عن «الحرد» وكارمن لا تحب الوجوه المتجهمة.

حضرت القهوة وحملتها على صينية إلى غرفة الجلوس.. وكانت على وشك العودة بسرعة حين قالت كارمن لها:

- بعدما يريني ثورن غرفتي أريد منك أن تفرغي حقيبتي.. سيخبرك ثورن متى أكون جاهزة لهذا.. ألن تخبرها حبيبي؟

تورد وجه ميرا لأنها تذكرت في هذه اللحظة تصرفها المتكبر مع رودا يوم وصولها إلى الجزيرة.. حاولت تجاهل التلميح الماكر في صوت كارمن التي أرادت أن توحي لها أن ثورن قد يتأخر في غرفتها لبعض الوقت.

ابتسمت كارمن بمكر أما ميرا فانسحبت إلى المطبخ.. وهناك تدحرجت دمعة على خدها.. لكنها لم تحس بالغضب فثورن يريد الانتقام.

تنهدت وهي تحاول أن تنظر إلى المسألة بطريقة موضوعية.. إنها محظوظة لأن ثورن يعطيها فرصة لتبرهن له أن المخلوقة الفارغة الأنانية التي كانتها قد ذهبت إلى الأبد..

اكتشفت ميرا أن كارمن تحاول السخرية منها على فشلها كعارضة أزياء، ولكنها لم تفعل هذا بوجود ثورن.

- أعتقد أنك لا تملكين ما هو مطلوب كعارضة.

رفعت ميرا رأسها بحدة.. فابتسمت كارمن:

- عندما التقيتك في باربادوس قلت للأصدقاء الذين كنت معهم إنك لن تبلغي ذروة النجاح.. ولأنني ممثلة أجدني قادرة على الحكم على الشخصيات.

تنهدت ميرا التي تعرف نوع كارمن من بعيد، وهي لم تكن قط ممثلة!

ردت ببرود: يعجبني ما أعمل به الآن.. فالطبخ مثير للاهتمام.

سألت كارمن:

- وهل ترتدي الطاهيات عادة السراويل القصيرة؟

نظرت بشيء من الحسد إلى جمال ساقي ميرا.. فردت ميرا بصوت هادئ:

- الطبخ في مثل هذا الطقس يستدعي شيئاً بارداً. والسراويل القصيرة هي كل ما لديّ.

فسد جمال كارمن عندما شدّت على فمها:

- أنت انتهازية لكن في المرة القادمة التي تفكرين فيها بتغيير نوعية عملك، عليك النظر إلى الأمام قبل أن تقفزي.. الواضح أنك جئت إلى هنا بغرض طهو أشياء أخرى.. ولكن على ما يبدو أنني وضعت حداً للعبتك القذرة.

أحست ميرا بأن غضبها يتصاعد، وهي التي ظنته تركها ولن يعود.. ولكنها سيطرت عليه بسرعة. كارمن تبالغ في ترديد كلام مبتذل وتتعمد الفظاظة.. فماذا تكسب ميرا إن ردت عليها وأمسكتا بخناق بعضهما بعضاً.

هزت كتفيها تسأل:

- وما الذي دفعك للمجيء؟

ردت بصوت ماكر: طلب مني ذلك ثورن عزيزتي.. بدا يائساً إلى حد التوسل.

- التوسل؟

- لا تظهري مثل هذه الدهشة! إنه يريد كتابة دور يناسبني فقط.. ووجد أن أفضل طريق لتحقيق ذلك هو البقاء معاً.

ارتدت ميرا عنها وهي تشعر بالغثيان.. إذن لقد دعا ثورن كارمن إلى «كوريسا» وكأنه يريد معاقبتها وإيلامها.. أحست ميرا بجرح عميق وكأنه

غرز سكيناً في قلبها.. راحت تغسل الخضار التي كانت تحضرها للسلطة بقوة على أمل أن تفهم كارمن المعنى فتخرج من المطبخ.

لكن كارمن لم تكن قد انتهت، فما إن أدارت ميرا ظهرها لها حتى قالت برقة لاذعة:

- أريد منك تنظيف غرفتي مرة أخرى، في أسرع وقت ممكن. أعرف أنك نظفتها مرة هذا الصباح.. لكن ثورن دخل وأنا أفتش عن السائل الواقي من أشعة الشمس ونثر الرمل في كل المكان.

- سأنظفها حالما أستطيع.

نظرت من فوق كتفها إلى عيني ثورن الذي تحول نظره بدفء من فتاة إلى أخرى، وقال:

- جئت أرى كم سيتأخر الغداء.. مرحباً كارمن. آسف لأنني أهملتك اليوم، لقد كنت مشغولاً. إن شهيتي للطعام مفتوحة لهذا جئت أتفقد الغداء.

دنت كارمن منه:

- أعرف أنك جائع حبيبي.. لهذا جئت أستعجل ميرا. أعتقد أن النشاط الصباحي جعلنا أنا وأنت نجوع كثيراً.

لف ثورن ذراعه حولها وهو يراقب ميرا ساخراً:

- يبدو أن طاهيتنا فقدت لسانها!

ردت ميرا شاحبة الوجه:

- الحساء جاهز.

تذمرت كارمن: «الطقس حار على الحساء».

قالت ميرا: «إنه حساء بارد».

- الحساء البارد رهيب.

رغبت ميرا في وضع السم في طبق كارمن. وهذا ما تستحق!

قال ثورن لكارمن:

ـ جوك يصب العصير في غرفة الجلوس، فاذهبي للحصول على كوب قبل أن يجلبه إلى هنا.

هزت كارمن رأسها وحاولت إظهار ترددها.. كارمن شفافة حين لا تكون حذرة.

فجأة أحست ميرا بفكه القاسي وذقنه القوي على رأسها وشمّت الرائحة التي يتعطر بها..

ـ لا تحاولي مخاشنة كارمن، فهذا لن يعجبني ولن يعجبها.

ـ لم أقصد هذا.

ألا يدرك ماذا يفعل بها؟

وضع يده عن غير توقع تحت ذقنها، وأجبرها على النظر إليه.. فتصاعد شرر بينهما ما إن تبادلت عيونهما النظرات.. ثم التهبت نظرته وحسبته يهمّ بمعانقتها فقد ازدادت أنفاسه عمقاً ولكنه أبعدها عنه.

قال: ليس سهلاً التوافق مع كارمن بسبب شخصيتها الفنية.. يجب على من يعرفها أن يتساهل معها.

ـ أفهم هذا.

عبس عندما سمع نبرة الخنوع في صوتها:

ـ بدوت لي متوترة الأعصاب حينما دخلت إلى هنا.. هل قالت لك شيئاً كدّرك؟

ـ لم تقل ما يزيد عما تقوله عادة.

ـ أليس سبب إحباطك هو العمل الشاق والبعد عن اللهو والراحة؟ وهل تجعلين ببساطة كارمن كبش فداء؟

آذتها ملاحظته الحادة فردت:

ـ أنا لا أنفس عن مشاكلي في وجه الناس.

ـ أليس من الأفضل أن تصادقيها؟

ـ كم ستقيم هنا؟

ـ قدر ما تريد.. لا داعي لمزيد من الأسئلة. ستعرفين في أسرع وقت ممكن.

عندما يقنع كارمن بالزواج به ربما؟

راقبته يترك المطبخ بعينين كئيبتين، ثم نادته:

ـ سأبدأ بتقديم الغداء فوراً.

لم تكن ميرا تتناول طعامها في غرفة الطعام، لذا عادت إلى المطبخ.. أما ثورن فلم يحاول مجادلتها هذه المرة. وهذا ما أشعرها بالراحة.. دارسي وجوك كارد صديقا كارمن زوجان غريبان.. فكما عرفت ميرا أن والدي جوك أورثاه من المال ما يكفي لجعله في بحبوحة دون الحاجة إلى العمل.. لذا تراه يمضي معظم أيامه ممدداً على كرسي نوم في الحديقة مع زوجته.. ألمحت دارسي يوماً أنها وزوجها في حوالي الخمسين أما كارمن فما زالت في الثلاثينات. شعرت ميرا أن ثورن لا يحب جوك كارد كثيراً.. ولم يكن هذا غريباً نظراً لاختلاف أمزجتهما وطبيعة كل واحد.. ولهذا آمنت أنه جاد بعلاقته بكارمن ولولا هذا الجد لما احتمل وجود شخص ليس بينه وبينه أي شيء مشترك.

اعتنت ميرا بتحضير العشاء بشكل خاص ذلك المساء.. فقد وجدت وصفات في إحدى المجلات اتبعتها بحذافيره.. حضرت بعد الغداء مباشرة طبق السلمون بالصلصة البيضاء ووضعته في البراد كي يتجمد. ثم بدأت التركيز على «فيليه» العجل المحشو وعلى قالب حلوى البرتقال. من حسن الحظ أن كل شيء سار على ما يرام.. لكن ميرا تساءلت عما إذا كانت قادمة على كارثة.. فالضيوف لا يمدحون أي صنف تحضره أبداً.

لكن ثورن مدحها.. فقد جاء وهي تغسل الصحون يهنئها بنفسه.

ـ كان لحم العجل مميزاً.. لا أريد أن أجرح مشاعرك، لكن ألم يكن في الطعام ما هو ناقص؟ كدت أجن وأنا أحاول التفكير في ماهيته.

ابتسمت ميرا شاكرة إياه أنه لم يذكر شيئاً أمام الآخرين:

ـ نفد البهار.

ضحك: آه.. لماذا لم أعرف؟ أتعرفين.. لم أفكر في شيء آخر منذ العشاء.. حسناً حددي لي ما الذي ينقصك. يجب أن أذهب إلى الجزيرة الرئيسية في يوم قريب.. لذا حضري لائحة.

هزت رأسها وابتلعت ريقها.. عندما ذكر الذهاب إلى بارباروس.. أرادت أن تطلب منه شيئاً ولكن ليتها تملك الجرأة!

***

٩ ـ انتهت اللعبة... فارحلي!

قالت بصوت منخفض:

ـ ثورن.. حين تذهب إلى بارباروس، هل أستطيع مرافقتك؟ أعرف أنني لم أسدد ديني بعد.. ولكنني لا أرى جدوى من إقامتي هنا أكثر من هذا.

اقترب منها: «ما الأمر؟ هل تراجعت بكلامك؟»

غسلت صحناً بحذر: «ربما».

رفع خصلة من شعرها ليرى وجهها:

ـ أنت شاحبة هذا المساء.. هل أنت بخير؟

كان يبدي اهتماماً خاصاً بصحتها من وقت لآخر.. ولكنها لا تتصور أن للمسألة علاقة بشخصيتها. إنه يستمتع بوجود ضيوف طالما لديهم من يخدمهم.

ردت بخفة: «لن أنهار إن كنت تخشى ذلك».

اشتدت خشونة أنفاسه وهو ينظر إليها:

ـ أنت أكثر نحولاً من يوم مجيئك.. هل تأكلين جيداً؟

ـ وهل تظن أنّ الشهية تحفظ الإنسان من كل شيء؟

لم تشاهد عبوس ثورن ولكنها أحست بتغضن جبينه.. تورد وجنتاها، فبذلت جهداً لئلا تنظر إليه. تسارعت نبضاتها بسبب الطريقة التي كان ينظر فيها إليها.

ـ ميرا . .

ودخل جوك إلى المطبخ .

ـ آه . . ثورن . . كنا نتساءل عن مكان وجودك .

هز ثورن رأسه وارتدَّ، ثم توقف عندما التفت الرجل مباشرة إلى ميرا .

سألها بلهفة : «كنت عارضة أزياء . . عزيزتي؟»

لأنه هنا منذ أيام، ولأنه لم يلحظها كثيراً، تساءلت لماذا ينظر إليها وكأنه لم يرها من قبل . . هل السبب وجود ثورن على مقربة منها؟

ردت مراوغة : «لم أعمل بعرض الأزياء مدة طويلة» .

ابتسم جوك : مع ذلك، يهمني أن أسمع شيئاً عن تجربتك .

استراحت ميرا عندما عاد ثورن ليقف قربها . ثم قال بحدة : ميرا متعبة لذا لن تستطيع مناقشة أي شيء الليلة . من الأفضل أن ترافقني جوك . . بعيداً عن طريق الإغراء .

أخفى جوك مرحه بابتسامة كريهة :

ـ من الأفضل أن أتبع تعليماته بالوقت الحاضر، ميرا . . ولكن أعلمي أن ثورن يمضي وقتاً طويلاً في مكتبته .

حقاً؟ اهتمت ميرا بهذه المعلومات أكثر من اهتمامها باهتمام جوك الزائد بها . فقد ظنت أن ثورن يمضي أكثر أوقاته مع كارمن . . بعد ظهر ذلك اليوم اصطحبها في رحلة بحرية على مركبه ولم يعودا حتى وقت متأخر .

رماها ثورن بنظرة ملؤها السخط . . أيظن أنها تشجع جوك؟ جوك الذي يتجاوز عمره الخمسين عاماً . .

بعدما أنجزت عملها شعرت ميرا بالتوتر وقررت الخروج للتنزه مع أن الساعة تجاوزت العاشرة . عندما تركت المنزل ظلت تسمع صوت الموسيقى وضحكة كارمن الحادة المرتفعة .

رأت ضوءاً في الغرفة التي ينام فيها الزوجان . لم تعرف ما إذا كان

الآخران قد ناما . . ولأنها لم تسمع صوتاً في غرفة الجلوس ظنت أن الجميع نيام . . صعدت بهدوء إلى الطابق العلوي لئلا تزعج أحد . . ولكن ما إن وصلت إلى الممر حتى توقفت في الوقت المناسب لتمنع ثورن من رؤيتها . . رأته يحمل كارمن إلى غرفة نومها، كانت ذراعا كارمن مشدودتين حول عنقه، وكانت تضحك برقة له ثم رأته ميرا يصفق الباب بحدة وراءهما .

تلقت صدمة عنيفة جعلتها ترتجف، فراحت تتخبط حتى وصلت إلى غرفتها وهناك أسندت ظهرها إلى الباب . لو وقعت عليها صاعقة لما شعرت بمثل هذا السوء . . وتهاوت إلى سريرها بوهن وراحت دموعها الحارة تنهمر بلا انقطاع . . دموع كانت تحبسها منذ جلب ثورن كارمن إلى جزيرته .

لقد أحبت ثورن وما زالت تحبه . . وهذا الحب للأسف يرفض أن يموت . . وليته يخبو أو يموت لئلا تتحمل المزيد من الألم . . أطبقت عليها بلادة حسّ رهيبة أحاطت بقلبها، وبدا أمامها المستقبل قاتماً مهجوراً .

في الصباح التالي أحست بإرهاق رهيب، لذا شعرت بالحاجة إلى الوقوف تحت الدوش مدة طويلة لتزيل آثار الدموع والتوتر عن وجهها . . عندما وصلت إلى المطبخ رأت ثورن هناك . شعرت بأن عينيه لا تفارقانها ولكنها لم تستطع أن تنظر إليه . . كانت الساعة قد تجاوزت السادسة ولم يكن أحد سواهما مستيقظاً . . كالعادة تصاعد بينهما شرر ملؤه التوتر .

قال عابساً : «تبدين متعبة» .

ردت بتمرد، يدها ترتجف وهي تصب القهوة لنفسها :

ـ ليتك تتوقف عن التظاهر بقلقك عليّ . .

ـ لماذا لا تعودين إلى الفراش؟

ـ وما الفائدة؟

بدأت تفك لفافة توست مقطع:

ـ أستطيع تحضير فطوري ولو لمرة.

أيريد إبعادها عن الطريق لئلا تراه وهو يحمل شيئاً لكارمن؟

ـ هناك آخرون غيرك.

رد بكلام فاجأها:

ـ ولن يضيرهم كذلك أن يحضروا فطورهم بأنفسهم.

صاحت بحدة، ورأسها يؤلمها:

ـ ثورن.. ! هلا صمت وتركتني أتابع عملي؟ فأنا مشغولة طوال فترة الصباح.

لم يبدُ أنه يصغي إليها بل بدا مشغول الفكر ثم أدركت فجأة أنه ينظر إلى وجهها وجسمها. لقد أطالت الوقت تحت الدوش ولكنها لم تهتم كثيراً بما ارتدت.. كان سروالها مشدوداً بلا عناية إلى خصرها النحيل وقميصها الشفاف مزرراً دونما اكتراث، ومع أن وجهها كان خالياً من الماكياج فقد بدا أنه يجد شيئاً آسراً فيه، فقد بقيت عيناه مثبتتين على وجهها وتزدادان اسوداداً.

همست وقد نسيت كارمن: «ثورن؟»

ارتدّ عنها فجأة.. فأدركت أنه يحاول السيطرة على غضبه.

قال بحدة: عليك أن تتعلمي كيف ترتدين ملابسك بشكل ملائم. إلا إذا أردت أن يزعجك جوك.

ـ أظنني قادرة على التعامل مع جوك.

ـ كما فعلت مع دون دورسيت؟

تورّد وجه ميرا بسبب تلميحه إلى أنها شجعت دون على شيء.

ـ أتصدّق هذا حقاً؟

نظر إليها مشدود الفك، ثم مرر يده على مؤخرة عنقه.

ـ أعتقد أنك لست الوحيدة التي تشعر بالتعب هذا الصباح.

أهذا نوع من الاعتذار؟ نظرت إلى وجهه فوجدت آثار التعب:

ـ حاول أن تنام في.. سريرك.. على سبيل التغيير.

تسلل لون قاتم إلى بشرته.

ـ وكيف تعرفين أين أنام؟

ـ لا يهم.. ما كان يجب أن أتفوّه بهذا الكلام.. فأنا أعرف أنك تحب كارمن.

نظر إلى خديها المتوردين:

ـ ما زلت تتكلمين بالألغاز.

لكنه لن يفهم أبداً أن من المستحيل عليها أن تصوغ ما شاهدته ليلة أمس بكلمات.

قالت: «أنا أغار».

ـ عندما تعودين إلى عالمك المتمدن فسيساعدك عدد من الرجال على إبعاد أفكارك عني.. وسرعان ما تنسينني..

عضت شفتها بسبب قسوة كلماته..

همست: «لا أظن أبداً أنني سأنسى».

ـ وأنا أظن أنني في موقف أفضل للحكم عليك.

ثم ارتدَّ فجأة وخرج من المطبخ.

رغبت في الخروج لتسبح، لكن ألم رأسها تفاقم بحيث اضطرت للذهاب إلى غرفتها.. حين أطلت كارمن عليها وجدتها في الفراش شاحبة منهوكة القوى. ثم سمعت صوت ثورن يسألها وهي خارجة ما بها.

بعد دقائق سمعت قعقعة أواني الطعام قرب سريرها.. ولمّا فتحت عينيها لم يكن القادم ويا للدهشة كارمن بل ثورن الذي كان يحمل علبة دواء مع بعض الشاي.

حدّقت إليه مستغربة:

ـ أوه! ما كان عليك إزعاج نفسك.

- لا إزعاج.

فتح علبة مسكن للأوجاع:

- هل تناولت شيئاً من هذا؟

- ليس لدي منها.

أخرج حبتين من العلبة، وعيناه على وجهها المحموم:

- خذيها.. هذا أقل ما يجب على الرجل القيام به إن فكر في ما تقدمه له المرأة من خدمات.

مدت يدها ثم قطبت جبينها لأن ألم رأسها هدّد بالانفجار بسبب تحركها.

تمتمت: «سأكون على ما يرام بعد ساعة أو ساعتين».

انتظر حتى ابتلعت الأقراص، وشربت نصف الشاي.. ثم قال بلهجة وعيد:

- لا تشغلي بالك بشأن الغداء.. سأهتم به. و... الأفضل لك العمل بنصيحتي هذه المرة.. وإلا..

بعد خروجه غطت ميرا بنوم عميق.. وكان الوقت متأخراً حين استيقظت ولكنها وجدت ألم رأسها قد زال.. راحت تتذكر لطف ثورن معها وهذا غريب.. لقد هدأت الأقراص ألمها ونامت، ولعل هذا ما كانت تحتاج إليه.. نهضت عن السرير فوجدت قرب سريرها إبريقاً من الماء يطوف على سطحه الثلج.. فتحت الرسالة بارتباك فعرفت سلفاً أنها من ثورن.

«لا تنهضي قبل أن تستردي عافيتك.. أود رؤيتك في مكتبتي.. ستقوم دارسي بطهو العشاء الذي ستقدّمه في الثامنة.. ثورن».

في الساعة السابعة كانت تقرع باب مكتبته.

وجدته وراء منضدته يعمل.. لكنه وقف ليعطيها كرسياً وسأل بلهفة:

- كيف حالك؟

ابتسمت:

- شكراً للماء.. شربته كله. كنت أشعر بالظمأ والحر.. وليس لديك فكرة كم كان طعم الماء لذيذاً!

- أواثقة أنك بخير؟

- كان يمكن أن أطهو العشاء بنفسي.. ولم يكن من الضروري إيكال الأمر إلى دارسي.

نظر إليها نظرة غريبة، فندمت لأنها أظهرت مثل هذا السخط..

أضافت بتفاخر: لا أتهرّب عادة من مسؤولياتي.. سأبدأ بها غداً.

جلس على طرف طاولته، وقال بحذر وعيناه لا تفارقان وجهها:

- غداً.. سأسافر إلى نيويورك.. إذ لم يعد باستطاعتي الاستمرار بتجاهل الرسائل الملحة التي ترسلها دار النشر. وهناك أعمال أخرى تحتاج إلى اهتمامي.

- وكم ستغيب؟

- سأقيم هناك في الأشهر القادمة.

حملقت فيه بعدم تصديق:

- لا أستطيع مرافقتك إلى هناك.. ثورن!

- لم يطلب أحد منك ذلك..

عبست: «بدأت أحب الجزيرة.. ولكنني لا أظن أنني قادرة على الإقامة بمفردي أشهراً».

رد بحدة: «لم تفهمي القصد.. سنغادر الجزيرة كلنا غداً.. أنت تعودين إلى لندن.. وكارمن والزوجان يعودون معي إلى نيويورك».

أغمضت عينيها بشدة وتشنج جسدها.. هل يلعب لعبة ما معها؟

- متى خططت لكل هذا؟

استقام وسار إلى النافذة والقلق باد عليه بشكل غريب.

- خلت الخبر يسرّك.

ـ أجل.. أجل.. إني مسرورة.. المسألة أنك فاجأتني.. فقد دأبت على التلميح بأنني باقية هنا إلى أجل غير مسمى..

تردد ثم تكلم بصوت أجش:

ـ تصرفت بشكل أربكني ميرا.. وأظنك تستحقين كل ما حصل لك. ليس من السهل إخافتك ولست ملاكاً بحيث أبتعد عن قول أشياء وليدة اللحظة.. ولكنني لم أنوِ قط حجزك هنا إلى أجل غير مسمى.. وهذا أمر غير منطقي أو عملي.. كما أني غير قادر على اصطحابك إلى نيويورك.

ـ لكنك ستصطحب كارمن.

ـ أمرها مختلف.

سألت بألم وقد ابيضّ وجهها:

ـ وهل أراك مرة أخرى؟

ـ هذا أمر غير وارد.. أتظنين بعد كل ما جرى أني أرغب في رؤيتك؟ على أي حال أعتقد أن كلينا سيكون مشغولاً بمتابعة حياته بحيث لن يجد الوقت الكافي ليعود بالتفكير إلى الوراء.. فالندم غير نافع إلا إذا تعلم المرء عدم الوقوع بالأغلاط ذاتها.

سبحت ميرا في بؤسها ورأت عضلة تلتوي على فكه.. ولكن ما تبقى من تعابير وجهه ظلت متحفظة. أرادت أن تهمس أنها لن تستطيع نسيانه أبداً.. لكن الكره الذي يعتمل في داخله تجاهها صدّها وكأنه ضربها.

تابع: ستعودين إلى عرض الأزياء.. إلى تلك الحياة التي اعتدت عليها.. وإذا وقفت في طريقك عوائق في البداية فأنا واثق أن تالبوت سمولود سيهبّ لمساعدتك. وعندئذ ستتمكنين من العيش بسهولة ولن تعيقك عندئذ الكوابح التي طالما أعاقتك زمناً طويلاً بل ربما تستعيدين خطيبك السابق!

تمادى كثيراً.. لهذا طار قرارها الذي يقضي أن تلزم الهدوء في أدراج الرياح.. فقد هبّت واقفة وأرسلت إلى خده صفعة يائسة، ولكنه أمسك

معصمها وشدها إليه.

ـ لا تكرري هذا مرة أخرى أبداً.

صدمتها نبرة صوته المنخفضة بقسوة وكان ملء نظرته البرود والتهديد.. أضاف: «سبق أن حذرتك!»

شهقت: «لقد أهنتني لذا عليك ألا تستغرب ردة فعلي».

ـ نعم أهنتك ولكن كان لإهانتي مبرراتها.. أتذكرين سبب مجيئك إلى هنا آنسة لاوتون؟ لقد عقدت اتفاقاً على استغلال جمالك لإغواء رجل بغية انتزاع منزله منه.. وإن لم تنمي المهمة فالفضل لا يعود إليك..

ـ أنت تلوي الحقائق!

اشتدت قبضته على معصمها وهي تحاول الخلاص.. نظر بشراسة في عينيها طويلاً..

ـ وأنت تحاولين إنكار كل شيء.

ـ تعرف أنني لا أستطيع الإنكار.. وتعرف أيضاً أن لا شيء كان كما تصفه.. وإذا كان هناك ما هو صحيح فهو عملك على إغوائي!

مرت عيناه الضيقتان على وجهها فرأى عينيها المتوسلتين ورموشها الثقيلة وبشرتها الشاحبة التي تورّدت بشكل غير طبيعي.

ـ اخدعي نفسك إن أردت ميرا.. لكن هذا كل ما ستصلين إليه. وإذا كنت تشيرين إلى العناقات التي تبادلناها فلا تنكري أنك كنت أكثر من راغبة.

ـ لكنني لم أعترف بهذا أبداً!

رد ساخراً: لم تكوني مضطرة.. أتظنين أن الرجل لا يعرف؟ كنت كالشعلة المضطرمة بين ذراعي..

شعرت بالخجل بسبب وصفه هذا:

ـ أنت تبالغ بلا شك.. لا يمكن أن أكون هكذا.. كانت تجربة جديدة عليّ..

ـ عليّ أيضاً . . لم أتصور أن امرأة قادرة على هذا التجاوب . . احمدي الله لأنني حافظت على . . براءتك . . فلو أردت لأصبحت لي عشيقة مثالية، ولكنني لم أستطع نسيان خداعك .

ارتدّ رأس ميرا إلى الخلف غصباً . . الواضح أنه لا يريدها أبداً . .

قالت بصوت فارغ :

ـ لن أكون مخادعة بعد اليوم .

ومض شيء ما في أعماق عينيه وفي تلك اللحظة اجتاحتها موجة شوق إليه فمالت نحوه . .

سأل ساخراً : «أتتوقعين مني تصديق قولك؟»

ـ ليت الظروف اختلفت!

ـ وهذا ما أتمناه أيضاً . . لكنني لا أنوي القيام بشيء في هذا الموضوع . . سوى هذا .

فجأة أحست أنها مسحوقة على صدره، وراحت يداه تتحركان برقة وحنان أما هي فتحركت مشاعرها من رأسها إلى أخمص قدميها ووجدت أنها عاجزة عن المقاومة . . قد تكون المرة الأخيرة التي تحتويها ذراعاه . . تحركت ذراعاها بشوق فأحاطتا به .

كيف ستعيش بدونه؟ كانت نظرته محرقة فتدفق الاحمرار إلى وجهها .

تأوهت : آه! ثورن أحبك .

دفن وجهه في شعرها وتمتم :

ـ رائحتك كالأزهار . . بشرتك كالحرير . . أنت في دمي ولكن يجب أن أخرجك منه .

أدركت ماذا يفعل . . فلم يكن يعانقها بسبب اهتمامه بها بل في سبيل تطهير فكره منها .

ـ ثورن؟

كان لكارمن عادة مثيرة للاضطراب فهي تنادي الشخص عن بعد ميل منه وهذا ما أنذر المتعانقين قبل أن تفتح الباب وتدخل .

ـ ثورن . .

ـ ما بك؟

ـ برد العشاء واشتد غضب دارسي .

بذلت كارمن جهداً لتنظر من فوق كتفيه العريضتين إلى حيث كانت تقف ميرا التي كانت تحاول تهدئة مشاعرها . .

قال ثورن دونما اعتذار :

ـ أنا قادم حالاً . .

ثم دفعها إلى الخارج بلطف .

ارتدت ميرا إلى الحائط بوجه متورد بشدة، ولكنها انتفضت عندما وجّه ثورن حديثه إليها :

ـ تعالي لتتناولي شيئاً من الطعام . لا تتأخري .

أظهر على الأقل بعض القلق على صحتها . . لكنه كان سيبدي القلق ذاته تجاه كلب أو قطة . مسحت ببؤس دموعها . . إنه يبعدها عنه مرة أخرى وينكر المشاعر غير المعلنة المتواجدة بينهما . توجهت إلى المطبخ مثقلة النفس . .

في الصباح التالي عملت على توضيب حقائبها وعلى ترتيب المنزل . بعد العذاب الذي شعرت به في المكتبة تاقت إلى مغادرة الجزيرة . كانت في حالة توتر وقلق . . ولهذا خشيت أن تنهار حالما تعود إلى لندن . . هذا إن وصلت إلى هناك دون أن تفضح حالتها الرهيبة .

بعدما وضّبت أغراضها بذلت جهداً لترتيب المطبخ . . ثم ألقت نظرة أخيرة وعيناها مغرورقتان بالدموع . . لم تتوقع قط أن تولع بالجزيرة التي تعاظم حبها لها مع تعاظم حبها لثورن .

وجدها ثورن تهمّ بتناول حقيبتها لتتوجه إلى المركب .

قال ببرود: «نحن بانتظارك».

كان يساعد أصدقاؤه الذين كان عليهم أن يحضروا أنفسهم. لم ترفع كارمن أو دارسي إصبعاً بعد عشاء الأمس.. لذا راحت في الصباح تجلي الأطباق المتسخة.. في السادسة أطل ثورن من باب المطبخ فعبس ما إن رأى ما تفعل ولكنه نظر إليها بوجه متوتر متجهم قبل أن يخرج مجدداً.

قالت متوترة: «أنا قادمة حالاً».

عندما أقفل الباب بالمفتاح قال لها بحدة:

- أتفكرين البقاء في باربادوس؟ أنسيت أن الفندق مدين لك ببضعة أيام؟

أشاحت بوجهها عنه:

- لا.. تلك الأيام ملك للأخوين سمولود.. قل هذا لابن عمك إذا شئت.. وإن لم أتمكن من حجز رحلة اليوم فسأقيم في مكان آخر حتى أسافر.

- جيد.

ارتدت على عقبيها:

- ثورن؟ هل تحب كارمن؟

- أفضل عدم الرد.

- لكنك تعاشرها..

رفض أن تجره للكلام:

- رجاء لا تؤخرينا بأسئلتك ميرا.. ليس لدينا اليوم كله للوصول إلى المطار.

في المطار، كان على كارمن أن تنتظر قليلاً حتى تقلع طائرتها.. وكان الوقت مبكراً حين ودعت ميرا ثورن ورفاقه.. وكان الزوجان يريدان السفر صباحاً وهذا يعني أن ثورن وكارمن سيبقيان بمفردهما.

ما إن غادرت طائرتها الأرض حتى دفنت ميرا وجهها الأبيض الشاحب

في كتاب، في محاولة لإخفاء الدموع التي انهمرت على خديها الباردين.

في لندن توجهت مباشرة إلى شقتها التي ما إن وطئتها حتى نظرت إليها بعينين مخدرتين.. بدت لها الشقة باردة موحشة.. فكرهتها فجأة وعرفت أنها لن تستطيع البقاء فيها.. كان البراد فارغاً ولكنها لم تشعر بالجوع، فأعدت فنجاناً من القهوة المرّة.

في الأسبوع التالي قضت الوقت بالتفكير في شؤونها.. وهذا أمر كان عليها القيام به منذ زمن بعيد.. أولاً ستتخلص من الشقة، وهذا أمر غير صعب.. ثم ستستأجر شقة متوسطة في مكان آخر من المدينة.

قال تالبوت سمولود لها متعجباً، وهو يتصل بها هاتفياً يوم انتقالها من شقتها:

- لماذا تقدمين على أمر كهذا ميرا؟ لماذا لم تتوجهي إليّ مباشرة.. فأنا أريد أن أتناقش معك بمسألة الكاريبي... كنت قلقاً حتى الموت عندما كلمني ثورن سواذلنغ.

استطاعت أن تتصور كيف تكلم معه ثورن بطريقة غير لطيفة.. قالت وهي تصرف النظر عن المسألة:

- لم أعتقد أن هناك جدوى من مجيئي لرؤيتك والتحدث بالأمر. كان ثورن.. السيد سواذلنغ أذكى منا.. وأعترف أنه خدعني حتى فضحت نفسي.. لكن كل هذا كان ضمن اللعبة.. أليس كذلك؟ لقد انزعج بشدة وهو أمر مفهوم. ولكنه ينوي أن يبيع الجزيرة لذا لا يردعنك هذا الفشل.

لماذا تدافع عنه؟ لا سمح الله أن يرضى ثورن بالبيع!

بدا تالبوت مرتبكاً:

- كدنا ننجح.. هل اكتشفت أين أخطأنا؟

- ربما كانت غلطتي.. ولعل السبب افتقاري إلى الخبرة..

- سندفع لك ما اتفقنا عليه... هل تتناولين العشاء معي؟

رفضت بحدة: لا.. شكراً لك. لقد غيرت رأيي بشأن التعويض.

كنت مجنونة عندما وافقت على القيام بهذه الخديعة، لكن ربما تعلمنا أنا وأنت درساً.. عندما تريد إرسال إحداهن للقيام بعمل كهذا فاختر من تملك خبرة.

وضعت السماعة وهي ترتجف. لم يكن لديها النية في الإصغاء إلى اعتذارات تالبوت.. فهي لا تريد إلا وضع كل شيء وراء ظهرها بما في ذلك ثورن الذي عليها نسيانه لتستطيع أن تنعم بهذه الحياة.. ماذا سيقول تالبوت سمولود لو قالت له إنها تنوي تغيير مسار حياتها كلياً؟ إنه متلهف إلى مرافقة عارضة أزياء شهيرة.. ولكن هل سيشعر بالحماس ذاته إن عرف أنها تنوي العمل طباخة عند شخص ما؟

بعد انتقالها إلى شقتها الجديدة بيوم زارت وكالة خدمات تؤمن مدبرات للمنازل ومعلمات ومربيات أطفال.

ابتسمت لها المرأة التي قابلتها:

- لا يتقدم إلى هذا النوع من الوظائف إلا القليلات لذا من السهولة إيجاد وظائف شاغرة.

عرضت على ميرا خياراً من ثلاثة.. وأصغت ميرا باهتمام والمرأة تصف كل خيار على حدة. أخيراً سألت:

- وأي عرض تنصحينني بقبوله؟ فالعروض الثلاثة مناسبة.

تفرست المرأة فيها مفكرة:

- تقولين إنك تملكين خبرة غير واسعة؟

- أجل.

شرحت كيف اعتنت بأربعة أشخاص على جزيرة في الكاريبي.

أضافت: اكتشفت أنني طاهية ماهرة.. وأحب كثيراً أن أكون مربية أطفال ولكنني غير مدربة.

- أتحبين الأطفال؟

هزت ميرا رأسها إيجاباً.

- لماذا لا تتقدمين للعمل عند الزوجين الأميركيين؟ إنهما يريدان شخصاً يعمل عندهما مدة شهر فقط.. وفي هذا الوقت اعملي على التدرب على تربية الأطفال، فهذا سيزودك بمؤهلات ضرورية للقيام بعمل تحبينه حقاً.

شكرتها ميرا ووعدتها التفكير في الأمر..

أضافت المرأة: الزوجان الأميركيان في عمل هنا، ولكنهما يستقبلان أعداداً كبيرة من الناس.. تعتقد السيدة كارويل أنها قادرة على تدبير أمرها بمفردها، لكنها تجد صعوبة.. فعدا الطاهية هي بحاجة لمن على معرفة باهتمامات المجتمع الراقي.. وهذا في الواقع مركز مثير ولا يستطيع أي كان التعامل معه.. أتظنين أنك قادرة؟

أحست ميرا بالاهتمام.. فأن تعرف شيئاً فهو ما يهتم به المجتمع الراقي، فطالما أقام والداها حفلات العشاء حتى أنها ظنت قادرة على ترتيب حفلة وهي نائمة! أحست أنها مشدودة نحو هذين الأميركيين لأن ثورن أمريكي أيضاً..

- أعتقد أنني قادرة على ذلك.

ولأن الزوجين الأميركيين يريدان شخصاً ما في أسرع وقت ممكن وافقت على العمل فوراً.. يقع منزلهما قرب هايدبارك الذي يبعد كثيراً عن مسكنها.. لم ترَ جاك كارويل بل رأت زوجته وكانت الخادمة قد رافقتها إلى غرفة الجلوس حيث كانت كلاريسا كارويل بانتظارها.. أحست ميرا أن صبر المرأة يكاد ينفد إذ كانت تنظر بلا توقف إلى الساعة.

صاحت المرأة حالما رأت ميرا:

- أنت مدبرة منزلي الجديدة؟ لا أصدق!

* * *

١٠ ـ تدفع ثمن الماضي

قررت ميرا أن من الأفضل تجاهل الاستغراب الذي أظهرته مخدومتها الجديدة.. أترى السبب صغر سنها؟ يبدو أنها توقعت امرأة متوسطة العمر، لا فتاة في الثانية والعشرين..

ردت: أرسلتني الوكالة سيدة كارويل.. أنا ميرا لاوتون.

استردّت السيدة كارويل وعيها.. وابتسمت بوجه مشرق وصافحت ميرا:

ـ أوه.. جيد! لا أكون عادة على هذه الدرجة من التوتر ولكنني أساعد زوجي وقد تأخرت على عملي.

ـ سأكون هنا في وقت باكر.

بدا على السيدة كارويل خيبة أمل.

ـ أملت أن يرسل لي المكتب من يقيم معنا.. يجب أن نناقش هذا الأمر في المساء.

ثمة أمور كثيرة تودّ ميرا مناقشتها. ولكن عليها أن تنتظر قليلاً.

قالت: لن أعيقك أكثر من هذا.. هلا أعطيتني فكرة عما تريدين مني القيام به اليوم.

تنفست السيدة كارويل الصعداء وهي ترى برودة ميرا الواضحة وثقتها بنفسها.

ـ أحمد الله لأنك لست مذعورة! دعوت إلى العشاء ستة أشخاص..

فأنا وزوجي نستقبل عدداً كبيراً من الناس.. ولكنني الآن مضطرة لترك مسألة الطعام لك، فلم أجد الوقت للتفكير في الأطباق التي سأختارها.

قالت ميرا بثقة: «لا تقلقي على هذا».

وتذكرت أن تضيف «سيدتي».

ـ سأعتني بكل شيء.

عبست السيدة كارويل: «أواثقة؟»

ـ أجل.. اتركي كل شيء لي.. ثمة أمر أو أمران من المهم أن أعرفهما. هل هناك ما لا تريدين أن أقدمه؟ فلعل أحد ضيوفك حسّاس تجاه شيء ما.. وهل ستتمكن الخادمة من تحديد مكان الأغراض التي أريد؟

ـ نعم جوديت تينغتون قادرة على تحديد كل الأمكنة.. فهي هنا منذ بضعة أسابيع. وهي كنز ثمين، لأنها لا تعترض حتى لو عملت ساعات أخرى إضافية، ولكن لا تكدريها رجاء.

ابتسمت ميرا: «لا تخشي شيئاً من هذا القبيل».

كانت السيدة كارويل تتكلم بسرعة وما إن أنهت ما تريد قوله حتى هرعت إلى الخارج حيث سيارة الأجرة التي تنتظرها.

أقبلت ميرا على عملها الجديد بشيء من الارتباك، فما زالت ترتاب بالتغيير الذي حل في نفسها. خشيت أن تستيقظ متأخرة ذلك الصباح فتفقد بسبب ذلك فرصة العمل وتضطر للعودة إلى عرض الأزياء.. وما أشدّ ما كانت مسرورة لأنها استيقظت باكراً فهي بحاجة إلى هذا العمل لأنه سيشغل تفكيرها عن ثورن سواذلنغ. أملت أن يكون اختلاف المحيط والتركيز الضروري على عملية الطبخ قادرين على جعلها تنام بشكل طبيعي.. إن الحزن الذي يثقل قلبها بسبب معرفتها بأنها لن ترى ثورن ثانية أمر لا يسهل الخلاص منه.

كانت الخادمة جوديت عاملة نشيطة تميل إلى الثرثرة ولهذا سرعان ما

عرفت ميرا مواضع كل شيء.

لم تطرح على جوديت أسئلة شخصية عن العائلة.. ولكن جوديت كانت تتحدث عن هذا باستمرار، ولم تجد ميرا طريقة تسكتها عن هذا دون أن تكون فظة معها. قالت لها إن الزوجين هنا لافتتاح فرع آخر لمؤسستهما العالمية.

ـ السيدة كارويل «لايدي» حقيقية.. ولقد سمعت الناس يقولون إنها نابغة في مسائل الأعمال.

ـ هل طال مقام آخر طباخة هنا كثيراً؟

ـ شهر واحد فقط.

ذكرتها جوديت بعصفور دوري وهي ترسل إليها نظرة ملؤها الريبة:

ـ كيف لفتاة مثلك أن تسعى إلى عمل كهذا؟ هل أنت ضحية ظروف معينة؟

ابتسمت ميرا قليلاً وردت بشكل مراوغ:

ـ ليس بالضبط.. لم ألتحق بالجامعة، وكان عليّ أن أعمل في مجال ما.. فاخترت هذا العمل لأنه متوفر أكثر من غيره.

نظرت إليها جوديت مفكرة:

ـ أقسم أنني رأيت وجهك من قبل. أنا لا أنسى كثيراً.. لكن..

قاطعتها ميرا بسرعة:

ـ أعتقد أنّ علينا التركيز على تحضير حفلة العشاء.. أريد أن أترك انطباعاً حسناً.. على فكرة لم تقل السيدة كارويل شيئاً عن الغداء.. هل يعودان إلى المنزل لتناوله؟

ـ لا عزيزتي.. يتغديان عادة في الخارج إلا في أحيان قليلة.. لذا، لا تقلقي..

حضرت ميرا عشاء من عدة أطباق فأبهجت الزوجين وأثرت في الضيوف.. لم تكن متأكدة من نجاحها ولكنها أخفت شعورها بالراحة..

قدمت جوديت الطعام لوحدها، بمساعدة السيدة كارويل..

انشغلت ميرا بالمطبخ بعد رحيل آخر الضيوف. كانت تضع معطفها استعداداً للخروج عندما دخلت كلاريسا كارويل يتبعها زوجها وهو رجل ضخم وقور.. هنآها على طهوها وعندما عرفا أنها ذاهبة، أصرا على الاتصال بسيارة أجرة لتقلها إلى بيتها.

قالت كلاريسا: «أحب أن تقيمي معنا».

ـ إذا أردت أقيم.. مع أن عندي غرفة و...

ـ أقفليها إذن أو أجريها.. سيبقى راتبك على حاله، مهما كان قرارك. لذا أنصحك أن تستفيدي من الوضع.

وجدت ميرا نفسها تعيش مع الزوجين كارويل في غرفة كبيرة لها حمامها الخاص. أحبت غرفتها حالاً فليس صعباً عليها الإقامة شهر كامل في مكان كهذا.

ذات صباح، دخلت السيدة كارويل المطبخ لتتكلم مع ميرا وكان قد مضى على وجودها ثلاثة أسابيع.

ـ آه.. ميرا.. دعوت اثني عشر مدعواً على العشاء غداً.. سأستأجر خدماً ليساعدوك.

ـ ما أعمار الضيوف تقريباً؟

قطبت السيدة كارويل جبينها:

ـ أعمارهم مختلطة. آه! أرجوك، ناديني كلاريسا، ميرا.

أحبت ميرا دفء قلب مخدومتها وابتسمت:

ـ وماذا قد يقول الناس إن سمعوا طباختك تخاطبك باسمك الأول؟

ـ لم أهتم قط بأشياء كهذه.. أنت فتاة فاتنة وأنا أحبك.. كل ما أتمنى معرفته هو ماذا تفعلين في مطبخي بدل مطبخك الخاص؟

عبست ميرا، فأضافت كلاريسا بلطف:

ـ أجل.. أعني لماذا لم تتزوجي؟ كان على رجل ما أن يخطفك منذ

زمن بعيد.. أم لعل الرجال في هذه الأيام عميان؟

شحب لون ميرا: «ربما».

اشتدت حدة بصر كلاريسا:

ـ ثمة رجل.. في مكان ما؟

ـ كان.

ـ أنا آسفة.. ما كان عليّ أن أتطفل. يا للمسكينة! أتريدين التحدث عن الأمر؟

حارت ميرا في أمرها فهي لا تدري إن كانت قادرة على البوح لهذه المرأة العطوف بما يجيش في قلبها، ثم دخل جاك كاروبل فحلها من حيرتها... سأل جاك زوجته عما إذا كانت تنوي الخروج إلى العمل اليوم.

لم تكن حفلة العشاء الكبيرة الشيء الوحيد الذي على ميرا التعامل معه في اليوم التالي فقد اتصلت كلاريسا من مكتبها لتخبرها أن ضيفاً آخر سيحضر العشاء، إنه ابن عم زوجها الذي سيقيم معهم.

ـ لا أدري كم سيبقى ميرا.. لكن اطلبي إلى جوديت أن تحضر السرير في الغرفة الزرقاء.. أعتقد أنها الغرفة التي يفضلها.

ما إن عادت كلاريسا ذلك المساء حتى سارعت إلى المطبخ وكأنها مضطرة لشرح أمر ما.

ـ لا أعترض على وجود ابن عم جاك عندنا فنحن نحبه، ولكن المشكلة أن الهاتف لا يتوقف عن الرنين عندما يأتي لزيارتنا.. إنه بهي الطلعة، وهناك دائماً امرأة يائسة تتصل به. المشكلة أنه يلجأ إليّ لأتخلص منهن ولهذا أجدني مضطرة إلى قضاء ساعات في الإصغاء إلى رواياتهن المثيرة للأسى.

قالت ملاطفة: غرفته جاهزة.. رتبتها جوديت وقد ألقيت عليها نظرة بنفسي.. والعشاء جاهز.

ـ رائع!

وصلت الخادمة الأخرى والساقي في الوقت المناسب. كان العصير والمرطبات في غرفة الطعام، وكانت ميرا تفكر في تسخين الحساء عندما همست جوديت أنها أوصلت ضيف المنزل إلى غرفته وأن على ميرا تأخير كل شيء بضع دقائق.

ـ سأؤخره..

كان الوقت متأخراً عندما رحل آخر الضيوف ووجدت ميرا أن الوقت حان لتأوي إلى فراشها فعليها استعادة نشاطها لتنجز ما عليها من أعمال.. آخر ما قام به الساقي قبل أن يغادر هو حمل القهوة للأسرة وضيفها وهذا يعني أنهم لن يحتاجوا إلى شيء بعد هذه الليلة.

صعدت بهدوء إلى الطابق العلوي، ولكنها سمعت همهمة الأصوات القادمة من غرفة الجلوس.. لم تكن واثقة في ما كانت تفكر عندما حصل ما حصل.. فقد شعرت بأنها طعنت بسهم من الخلف. كانت تهمّ بارتقاء الدرج المفضي إلى غرفتها عندما اعتملت في نفسها موجة من المشاعر التي لا يمكن وصفها، مشاعر دفعتها للالتفات كدمية.. في هذه اللحظة التقت نظرتها بنظرة ثورن سواذلنغ الذي لاح على وجهه عدم التصديق.

نظرت إليه للحظات كادت لا تنتهي وشعرت بأنه يترنح أمامها.. لا، هذا أمر غير حقيقي.. وخشيت أن تفقد الوعي.

سأل بصوت فظ:

ـ ماذا تفعلين هنا بحق الله؟ لم أرك بين الضيوف!

كيف استطاعت أن تكون باردة وكل جسدها يصرخ ألماً..

قالت هامسة:

ـ لست ضيفة، بل عاملة هنا.

سخر بحدة: «أتتصورين أنني أصدق ما تقولين؟»

برقت عيناه بوحشية، وكان عليها استغلال كل ذرة من قوة إرادتها قبل

أن تجيب ببرود:

ـ أنا طباخة السيدة كارويل الجديدة.. صدقت هذا أم لم تصدق.. إنه أمر عائد إليك.

ـ أنت على حق، فلم أسمع ما هو أسخف من هذا..

ردت بمرارة:

ـ ما أكثر ما قلت لي إن عليّ القيام بشيء نافع في حياتي.. وإن أردت التحقق فهذه عائلة كارويل أمامك..

ـ جاك كارويل ابن عمي.. وأنا أقيم حالياً عندهم.

كيف لم تحزر هذا عندما رأته؟ ولكن الصدمة شلّت تفكيرها... تذكرت أنها لاحظت في جاك ما ذكرها بثورن.

سألت بلهفة: «ماذا ستفعل؟»

تكلم بصوت منخفض وعيناه لا تفارقان وجهها الشاحب المتألم.

ـ قلت.. لن تكذبي لأنك تعرفين أنني قادر على جرك إلى تحت لمواجهة كلاريسا وجاك.. لكن من الأفضل لك أن يكون تفسيرك مقنعاً!

أحست ميرا بأن الدم يجف من قلبها المطعون.. فردت على نظرته الشرسة بنظرة متلهفة لم تكن تدركها.. إنه كما هو.. وهذا أمر مؤكد ولكن وجهه أكثر نحولاً وفمه أكثر قسوة.. وقد يكون السفر عبر المحيط الأطلسي سبب شحوب لونه.. ولكن في ما عدا ذلك ثورن هو هو وهي تحبه، مع أنه واقف أمامها كشخص غريب. ربما لم ينسها ولكنه غير مسرور بمقابلتها من جديد.

ـ شرحت لك.. نصحتني بالقيام بعمل مفيد، وها أنذا أتبّع نصيحتك.. سئمت عرض الأزياء، فذهبت إلى وكالة عمل أخرى وحظيت بهذا العمل.

سحب أنفاسه بحدة:

ـ يا إلهي! ربما في الأمر ما هو أكثر فلم أنسَ السبب الذي دفعك

للمجيء إلى باربادوس، ابن عمي رجل ثري.. فماذا تخططين له؟

همست مرعوبة: إنك مجنون بلا شك.

ـ هل أخبرت جاك عن مغامرتك في باربادوس؟ وهل قدمت أية أوراق اعتماد؟

ـ وفر لي محاميّ أوراقاً.

تجاهلها بقسوة: «هل أخبرت جاك؟»

صاحت كالمجنونة: «لا».

وهربت منه قاصدة غرفتها وأغلقت الباب وراءها.. ولو لم يكن سريعاً لحطّم الباب وجهه.. فقد أوقفه، ثم لحق بها إلى الغرفة وأقفل الباب بالمفتاح ثم وضعه في جيبه.

ـ لئلا يقاطعنا أحد.

قالت متلعثمة:

ـ أنا.. لم أعرف أنك على صلة بأسرة كارويل وإلا ما عملت هنا.

ـ وأنا لم أتوقع أن تكوني أنت من طهوت هذا العشاء اللذيذ الذي تناولته.

ـ هل.. كارمن معك؟

ـ لا.. اللعنة عليك.. إنها ليست معي.

ـ سألتك فقط.. امرأة أخرى..؟

ـ لا.. مرة أخرى.. لقد تعرفت إلى امرأتين في نيويورك ولكنني لم أنم مع كارمن.

أحست ميرا بجرح عميق واغرورقت عيناها الخضراوان بالدموع.

ـ أعرف رأيك بي ثورن.. لكنني أقسم أنني لا أعرف شيئاً عن ابن عمك وسأبقى هنا أسبوعين آخرين فقط.. وإذا كنت تؤمن أني أخبئ نوايا إجرامية فمن الأفضل أن تسرع بإخباره. أعرف أنني ارتكبت غلطة فادحة عندما أقدمت على تلك الخطة في باربادوس، ولكنني دفعت الثمن.. ولا

يمكنني أن أتحدث بهذا أمام الجميع. قد يعتبر الناس القصة مزحة، لكن لك كل الحق في حماية ابن عمك وزوجته مني.

احترقت عيناه، وقال بصوت أجش:

ـ أنت جميلة بل خلاّبة بحيث يعيق جمالك التفكير السوي لذا يصعب معرفة مدى صدقك.. قد أكون أبلهاً لأنني منحتك الثقة ولكنه كل ما ستحصلين عليه.. ستجدينني حيثما كنت أراقبك حتى ينتهي وقت عملك هنا.. إن ارتكبت غلطة واحدة فضحت أمرك دون وخز ضمير.

ـ سأترك العمل.

تمتم من بين أسنانه:

ـ لا.. لن تتركي! ليس لدي دليل على شكوكي ولا أرغب في إثارة عداء أقاربي المفضلين بحرمانهم من طباختهم.

تنهدت: «لماذا تقيم هنا؟»

ـ لأنه يناسبني.

ـ حسناً، عليك أن تخرج من غرفة نومي لأن كلاريسا ستتزعج.

ـ وهل تنادينها كلاريسا؟

ارتفعت رموشها بتحد:

ـ طلبت مني مناداتها باسمها الأول، وأنا لا أفعل ذلك دائماً. لا أظنها توافق على وجودك معي هنا..

ارتجفت عضلة على جانب فكه.. ورد عليها بغموض:

ـ من الأفضل لها أن تعتاد على هذا.. فهذا مكان حميم دافيء.. وأنا واثق أنني سأجده مريحاً، ففيه سأمضي بعض الأمسيات.. فأنا لا أجد الاستقبالات التي تقيمها كلاريسا وجاك ضرورية جداً.

نظرت ميرا إليه مرعوبة:

ـ أريد أن أكون لطيفة ثورن.. إنما ليس إلى ذلك الحد.. من الأفضل أن تبتعد عني.

ـ سيدتي.. أتعرفين ما تطلبينه مني؟

فجأة انقضت ذراعاه عليها على حين غرة.

غلطتها الأولى أنها قاومته.. أو أنها أرادت مقاومته.. فثورن لا يحب أن يردعه أحد. لهذا استخدم قوته وأخمد بها مقاومتها. ثم التصقت به وهي تشعر بالصدمة بسبب قوة المشاعر التي كانت تهزّ كيانها.

لكن عندما ذابت بين يديه دفعها عنه منكراً بذلك وحشية المشاعر المتأججة بينهما.

عندما فتحت عينيها ببطء أدركت أنه رحل.. كانت ترتجف فقد كانت كشخص كان يسبح فوق النجوم ثم وقع فجأة على الأرض.. لقد شعرت بعمق مشاعره نحوها ولكنه يرفض بشدة هذه المشاعر المتوقدة بينهما.. كان قلبها لا زال يخفق بقوة.. لكن السهولة الظاهرة التي تركها فيها وبسرعة، أثلجت دمها في عروقها. ابتلعت نحيبها ثم ارتمت على السرير تاركة لدموعها العنان.

لماذا ثورن هنا؟ قال إنه باقٍ في نيويورك.. فما الذي دعاه للمجيء إلى لندن؟ ماذا ستفعل مثلاً عندما يبدأ بالخروج مع نساء أخريات؟ ألم تقل كلاريسا إنهن يدأبن على ملاحقته؟ وهو ألم يكشف عن مدى حاجته إليهن؟ فهل سيكون لديها قوة الإرادة والكرامة لتتحمل؟

استيقظت في الصباح التالي في الوقت المعتاد، ولكنها فوجئت بثورن في المطبخ.. كان يرتدي سروالاً من الجينز وكنزة سوداء.. عندما نظرت إليه انخطفت أنفاسها.

رفع كوب قهوته ساخراً:

ـ أيثير فيك هذا ذكريات الأيام الماضية؟

ردت: «لا يمكن اعتبارها أياماً ماضية.. فلم يمضِ عليها سوى ثلاثة أسابيع».

ـ هل مرّ الوقت بسرعة منذ تركتني؟

نظرت عيناه إليها بحرارة كادت تحرقها.. ألا يدرك أن كل يوم مر بها كان دهراً؟

همست: «لم يمرّ الوقت بسرعة».

لكن ألم تقسم أنها لن تخفي الحقيقة أبداً عنه؟ قد تكون الحقيقة قاسية.. لكن لا سبيل آخر أمامها.. وإن سألها فستخبره عن حبها له لكنها تأمل ألا يسألها.

تركها حتى بدأت تشرب قهوتها:

ـ لم الاستيقاظ باكراً؟

ـ اعتدت على هذا وأنا في «كوريسا» وبت لا أقدر على النوم حتى وقت متأخر.. عادة أخرج للتنزه.

ـ ركضاً؟

ابتسمت متوترة: «لا، ولكنني أفكر في الأمر».

ـ تبدين رائعة بثياب الرياضة الضيقة.

طافت عيناه في جسمها بشكل حميم وكأنما ملاحظته أعطتهما عذراً لتجولا بها.. عندما تسلل اللون إلى وجه ميرا أضاف برقة:

ـ إن كنت تريدين التنزه هذا الصباح فسأرافقك.

معاً تركا المنزل لأنها لم تستطع مقاومة رغبتها في مرافقته.. عندما عادا بعد ساعة كانت مشرقة الوجه وبدا في عينيها شعاع لم تكن تحس به.. وعندما كانا يرتقيان الدرج وصولاً إلى الطابق العلوي اصطدما بكلاريسا فبدت الدهشة عليها لرؤيتهما معاً وارتفع حاجباها بسبب طريقة ثورن في الإمساك بذراع ميرا.. ولكن علا وجهها المرح بدل السخط.

ـ إذن تعارفتما؟

ـ عملت ميرا عندي في كوريسا.. ونحن نعيد التعارف.

ـ آه! هكذا إذن! يا للمصادفة الغريبة! وهل عرفت أنها موجودة هنا؟

ابتسم: لا.. وهي لم تعرف أنني قادم إلى هنا.

لمحت كلاريسا إلى عدم موافقتها:

ـ حسناً.. ليتك لا تحاول إغواءها لأخذها من هنا.. أفكر في إقناعها بمرافقتي إلى أميركا.

رد بهدوء جعل ميرا تشهق:

ـ انسي الأمر.. فلدي لها خطط أخرى.

أوشكت ميرا على الاعتراض، ولكنها قرأت تحذيراً في عيني ثورن. ليس لديه خطط كهذه لها، ولكنه يريدها بعيداً عن عائلته قدر الإمكان.

قالت ميرا: يجب أن أغتسل وأحضر الفطور.. أراك فيما بعد سيدة كارويل.

دخلت كلاريسا إلى المطبخ قبل الخروج إلى المكتب.

ـ لن يكون هناك أحد على الغداء عزيزتي.. ثورن سيلتقي صديقة قديمة يريد دعوتها إلى العشاء ولأنك متعبة بعد ليلة أمس أطلب منك أن تأخذي بقية اليوم راحة؟ ستكون جوديت هنا إذا احتجت إلى شيء.

أخفت ميرا يأسها، ولمَ لا؟ سيلتقي ثورن امرأة أخرى.. كادت كلاريسا تعض لسانها لأنها كشفت هذا.. أهي شفافة إلى هذا الحد؟

جاهدت لتضحك:

ـ شقتي بحاجة إلى عناية.. وقد أقضي ليلتي فيها.

ـ حسناً! لا بأس.

شعرت ميرا بالامتنان لكلاريسا لأنها لم تحذرها من ثورن.. أو على الأقل تجنبت هذا! لم تكن شقتها في الواقع بحاجة إلى شيء كما ادعت، ولكنها ابتدعت هذا العذر لتتجنب ثورن.. فالألم يتآكلها.. لن يعرف أين هي ولن يستطيع ملاحقتها إلى هنا بإهاناته. لكنه تصرف في هذا الصباح بغرابة.. فجأة وبدون سبب ظاهر عاد ذلك الفاتن الودود الذي راح يرمقها بنظرات مختلسة صغيرة جعلت نبضاتها تتزايد وكأنها تركض.. كانا قد سارا بسرعة، لكنها كانت كمن يزحف على الأرض أو يقف مسمراً، وهي

ضائعة في نوع من النشوة.

بعدما أنهت عدة أشياء غير ضرورية، قررت الاستحمام.. ما إن انتهت من الاستحمام حتى لفت منشفة كبيرة حولها وراحت تجفف شعرها. ثم في هذا الوقت سمعت طرقاً على بابها، أجفلها.

الساعة تجاوزت الثامنة.. قبل أن تصل إلى شقتها اشترت بضعة أشياء من بينها القهوة. هل الطارق أحد الجيران؟

فتحت الباب إنشاً واحداً بحذر.. فلمّا التقت عيناها بعيني ثورن ترنّحت من فرط الصدمة.. وقبل أن تتكلم أو تحاول إغلاق الباب في وجهه، تجاوزها ودخل ليقفل الباب وراءه.

ارتدت عنه بعجز:

ـ هل تقتحم الأبواب هكذا دائماً؟

أمسكها بسهولة وشدها بقسوة، وقال بحدة:

ـ لا يشعر المرء بعد تفتيش دام ثماني ساعات برغبة في أن يكون مؤدباً.

ـ أكنت تبحث عني؟

ـ أجل.. عنك! لم أجدك في العنوان الذي انتزعته من سمولود.. والزوجان اللذان يسكنان هناك سافرا في شهر عسلهما.. أخبرني أحد جيرانك أنك انتقلت ولكنه لا يعرف إلى أين.. كدت أجن حين تذكر جاك العنوان الذي أعطيته لسائق التاكسي الذي أقلّك إلى هنا في يوم عملك الأول عندهما.

ـ أراك مرتدياً ثيابك الرسمية.

مرت عيناها بذهول على بذلة السهرة السوداء التي زادت من عظمة جسده.

ـ بالتأكيد.. لم يستطع جاك أن يتذكر لكن بعد إلحاحي تذكر ونحن نتناول العشاء في مطعم «السافواي».

ـ وهل.. تركت العشاء؟

اعترف بابتسامة ملتوية:

ـ أظنهما سُرّا برؤيتي أبتعد وقد قالت كلاريسا إنها تفهم مصيبتي.. لكن إلحاحي على جاك كاد يفسد الأمسية.

ـ ولماذا أردت رؤيتي بسرعة؟ أتجد أن من الضروري مراقبتي إلى هذا الحد؟

ـ ليس لهذا علاقة بالأمر.

ـ لكنك قلت إنك بحثت عني طوال اليوم.. أخبرتني كلاريسا أنك سترافق امرأة إلى الغداء.

رد بنفاد صبر:

ـ تلك المرأة هي أنت! لم أذكر اسمك خشية أن تعتقد أنك بحاجة إلى الحماية مني، فتجد ما يشغلك.. فأنا غير قادر على مقاومتكما لي معاً.. ثم انشغلت على الهاتف. وما إن انتهيت حتى وجدتك خارج المنزل.. ومنذ ذلك الوقت وأنا أبحث عنك.

ـ لا أجد سبباً لبحثك عني.. لكن إذا كان هناك ما تريد قوله.. فانتظر خارجاً حتى أرتدي ملابسي.

ضاقت عيناه عندما رأى السرير والمقعدين المريحين، وهذا ما يدل على أن لديها غرفة واحدة..

قال: لن أخرج.. ولكن سأدير ظهري، وهذا كل شيء.

لم ترغب ميرا في افتعال مشكلة.. فالطريقة الوحيدة لتمضي الدقائق التالية بسلام المحافظة على برودة أعصابها.. هزّت كتفها ثم شرعت ترتدي ثيابها بسرعة وبعد ذلك تناولت الفرشاة وراحت تمشط شعرها لتعيد بعض الترتيب إلى خصله.

ولكن ثورن أقفل المسافة بينهما وكأنه لم يعد قادراً على الاحتمال.

ـ دعي الفرشاة.

تناولها من يدها بقسوة:

ـ أنت جميلة كيفما كنت.. ومهما فعلت.

فجأة أصبحت ذراعاه حولها.

ـ لا أستطيع العيش بدونك.. ميرا! أدركت هذا ونحن في الحديقة العامة هذا الصباح.. أريد أن أبقى معك فلا تبعديني عنك ثانية.

انقصمت سيطرة ميرا الهشة على نفسها وهمست من بين أنفاسها:

ـ لم أبعدك عني من قبل!

تمتم مرهقاً: قلت إنك تحبينني ولكنني لم أصدقك.. ظننتك تستخدمين هذا عذراً.. لأن النساء يملن إلى ادّعاء شيء كهذا «ما كنت لأدعك تقترب مني لولا حبي لك» وبهذا يجدن أعذاراً دائمة للاستمتاع.

وبخته بصوت متهدج:

ـ لكنك عاشرت النساء في نيويورك، امرأتين..

اعترف متجهماً:

ـ حبيبتي.. كذبت عليك في هذا. أردت أن أنساك وحاولت ولكنني لم أستطع المضي في علاقة مع امرأة وكان الأمر ينتهي بمجرد عناق.

ارتجفت يداه وهما تشتدان بشكل متواصل عليها.

ـ وكارمن؟

كشّر وشفتاه على أذنها:

ـ كانت ستاراً من دخان.. فاجأتني عندما وصلت هي وصديقيها إلى «كوريسا».. ولأنني كنت يائساً تركتهم يقيمون عندي. سبق أن شاركت في دور صغير في أحد أفلامي، وأملت المشاركة في مسرحيتي القادمة.. عدا هذا، ليس بيننا شيء والواقع أنني لم ألمسها على الجزيرة.

همست ميرا: «رأيتك تحملها إلى غرفتها في إحدى الليالي».

سحب نفساً بحدة:

ـ أرأيتني؟ كنا نستمع إلى الموسيقى فتظاهرت أنها غفت، وعندما

حاولت إيقاظها لم تستيقظ فاضطررت إلى حملها مع أنها كانت سترحب ببقائي في غرفتها.. ولكنني وضعتها في الفراش وكان هذا كل شيء.

صدقته ميرا التي أرادت أيضاً أن تصدق أنه فعلاً معها يريد استرضاءها.. احتاجت إلى قوة إرادة كبرى لتبتعد قليلاً عنه.

ـ ما زلت أجهل سبب مجيئك إلى لندن؟

ـ كان عليّ أن أجدك! تحملت الإقامة في نيويورك أكبر قدر ممكن ثم جئت لأتوسل إليك حتى تتناسي الماضي، ونبدأ من جديد.. حاولت منحك الفرصة لتقرري بالضبط ما هي مشاعرك نحوي.. ولكنني لم أرَ سوى البؤس في عينيك ونحن نتبادل الوداع في باربادوس.. والواقع أن كل ما كنت أتوق إليه هو أن أجدك وأضمك وأمسح الدموع من عينيك.

همست بتعاسة: «لكنني صنعت الماضي بيدي هاتين».

رد بصوت أجش:

ـ بعدما فكرت في المسألة، أدركت أن الأمر لم يكن على تلك الدرجة من الأهمية.. وأدركت كذلك مدى خبرتك.. لقد تكلمت مع تالبوت سمولود اليوم عندما قصدته ليساعدني على إيجادك فأخبرني أنك تركت شقتك الفاخرة وقال أشياء أخرى بينها أنك لم تكوني موافقة على العمل لصالحه، وقال كذلك إنك رفضت أي نوع من التعويض.

قاطعته لأنها شعرت بوجوب الصدق معه:

ـ لم أعرف الندم حتى عشت في الجزيرة.

ـ كدت أقتلك عندما اكتشفت ما كنت تدبرين له.. لأنني قد وقعت في حبك، أنا الذي لم أقع بالحب يوماً.. ولكن الغضب المستعر والإحباط أقنعاني بأنني لا أهتم بك، ولكنني عرفت أنني أخادع نفسي وهذا ما كان يزداد كلما اقتربت منك.

ـ ألهذا السبب احتجزتني في الجزيرة؟

ـ ليس بالضبط.. فحتى ذلك الوقت كنت مؤمناً أنك امرأة لعوب..

كنت واثقاً أنه لا يمكن لامرأة كانت مخطوبة لبيري غريتركس أن تبقى.. دون خبرة.. واضطررت إلى إعادة التفكير.

ـ وحتى ذلك الوقت كنت أؤمن أنني باردة..

تسلل لون أحمر قاتم إلى بشرته: باردة؟

ثم تأوه: «حبيبتي! لم أعرف قط امرأة مثلك.. وهذا جزئياً ما جعلني أحتجزك ثم جاءت كارمن التي كان وصولها نعمة من الله لأنها أبعدتني عنك.. مراقبتها إياي في كل شاردة وواردة كانت فوق طاقتي، ولكنها ساعدتني على الابتعاد عنك.. أحياناً!»

كنكفت الدموع: حبيبي ثورن!

وعقدت ذراعيها حول عنقه:

ـ كانت الجزيرة ملهمتي بأكثر من طريقة.. عندما مات والداي غضبت لأنهما تركاني مفلسة.. أما السبب وراء خطوبتي لبيري فليس الحب بل اللقب الذي سأحمله يوماً.. وما أشد ما كنت ساخطة عندما تخلى عني.. ذهبت إلى باربادوس لأنني كنت كسولة ولأنني ظننت أنني بخداعك سأنتقم من بيري.. لكن لم يكن لدي الشجاعة الكافية لأتمّ العمل الذي كلفت به.. والواقع أنني لم أعرف إلى أي مدى تغيرت حتى وقعت في حبك.. بعد هذا لم أكد أتعرف إلى نفسي.. إذ فقدت الاهتمام بكل الأشياء التافهة الزائلة التي كنت اعتبرها مهمة.. وأردت أن أضع هدفاً لحياتي.. ما دمت لن أكون زوجتك.

للمرة الأولى أشرقت أساريره:

ـ وهل تطلبين يدي؟

رفضت أن تبدي الخجل.. لكن التورد تسلّل إلى وجنتيها:

ـ آه! أنا آسفة ثورن.

ـ لا تأسفي على شيء.. فمنذ فسخت خطوبتنا الرائعة وأنا ألعن نفسي لأنني لم أجعلها أمراً واقعاً.. ثم غضبت من نفسي لأنني تركتك تعتقدين

أنك تخدعينني.. كي أخدعك أنا بالزواج بي.. اعتقدت أنني بهذا أنتقم منك.. ولكنني خدعت نفسي.

ـ ليتك أجبرتني على الزواج ثورن.. لقد تعلمت محبة كوريسا.

قبلها برقة: سنعود إلى هناك لقضاء شهر العسل.. أريد أن أستيقظ صباحاً لأرى إشراقة الشمس وأنت بين ذراعي. أريد أن أثبت لك حبي حتى تنسي كل شيء عداي.

ـ لكنني لم أفكر في أحد سواك منذ أمد بعيد.

ـ تلقيت صدمة عمري عندما رأيتك تعملين عند ابن عمي وزوجته.

ـ أردت أن أتدرب لأصبح مربية أطفال.

ـ مربية أطفال؟ حسناً.. إنها فكرة جيدة. لكن إن كنت تحبين العناية بالأطفال فمن الأفضل أن تعتني بأطفالي أنا.

صاحت بسعادة عاجزة:

ـ أوه.. ثورن! أحبك كثيراً.. وسيكون من دواعي سروري أن أربي أطفالك.

ـ وأنا أحبك كذلك.

تعانقا بحنان ورقة. ثم قال متأوهاً:

ـ أريدك.. لا تشكي في هذا أبداً حبيبتي.. ولكنني لا أريدك أن تكوني لي حتى نتزوج. يجب أن تؤمني أنني أحبك حباً خالصاً حقيقياً وأن ما أشعر به ليس مجرد رغبة.. الانتظار سيمحو الماضي ويجعل نهاية كل شيء سعيدة.

اعترضت: «لكن.. ثورن..».

همس بصوت أجش:

ـ هس! يجب أن تساعديني ميرا، فليس الأمر سهلاً علي.. بإمكاننا الزواج والعودة إلى «كوريسا» بعد أيام.

فغرت فاها:

ـ لكن . . كلاريسا؟

ـ سأجد لها طباخة أخرى، مهما كلفني الأمر! قد لا يعجبها هذا لكنها ستفهم حين أشرح لها أن حاجتي إليك أكبر من حاجتها إليك . . أنا من عائلة كثيرة العدد ولي أبناء عموم وأخوال في كل العالم، ولكنني لن أتزوج إلا امرأة واحدة.

مررت ميرا إصبعاً على فمه:

ـ سأكون عديمة الضمير إن تركت عملي هكذا.

ضحك في وجهها وعيناه غارقتان بالحب والثقة.

ـ طالما تتركين نفسك لي . . والآن، أعتقد من الأفضل أن نعود إلى المنزل . . فأنا أستحق بعض التهنئة.

حاولت مجدداً إلهاءه:

ـ ليس عليّ العودة الليلة.

برقت أسنانه البيضاء وأوقفها معه:

ـ علينا التخطيط أولاً، هذا دون ذكر طباخة بديلة . . وليس لدينا وقت نضيعه هنا يا امرأة!

ـ آه! ثورن . . !

ضمها إليه:

ـ أنت كالنار في دمي . . أحبك، ولن أدعك تبتعدين عني أبداً . . أبداً.

ارتجف قلبها الذي عاد يخفق من جديد . . . أيعقل أن ثورن واقع في حبها؟ وهل ستصبح زوجته حقاً؟ . . للمرة الأولى بحياتها تعرف الرضى الكامل والاندفاع . .

همست وهي تنظر إليه بعينين مشعتين:

ـ لن أطلب منك أبداً الذهاب يا حبيبي . . لأن كل ما أريده . . هو أنت!

***